جرح الذاكرة

عبد الوهاب حامد

obeikandl.com

اسم الكتاب: جرحُ الذاكرة

المـــــؤلف: عبد الوهاب حامد

الناشـــــر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغـلاف: محمد فــاروق

التجهيزات الفنية: حسام أنيس

بورصة الكتب

٢٥ شارع شريف– القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣- ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

رقم الإيداع : ٢٠١٣/ ١٦٣٢٧

الترقيم الدولي: ٢ ـ ٥٢ـ ١٦ـ ٥٠١٦ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨

حامد، عبد الوهاب.

جرحُ الذاكرة: رواية / عبد الوهاب حامد– ط١.– القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ .

١٢٠ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٢ – ٥٢ –٥٠١٦– ٩٧٧– ٩٧٨

١– القصص العربية.

أ– العنوان.

٨١٣

obeikandl.com

جرحُ الذاكرة

عبد الوهاب حامد

بورصة الكتب

٢٠١٣م

obeikandl.com

obeikandl.com

إلى

محمد سعيد عبدالله (أبو عادل)

هنيئاً لمن غُيِّب خلف أسوار الظلام، قبل أن يشهد ذُلّ الوطن

obeikandl.com

obeikandl.com

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تغادر فيها قريتَها الوادعة وأهلها الطيبين، لكنّ هاجساً ما، أو أفكاراً سوداء تطفو اليوم معتمةً في ذهنها، فتثير في نفسِها عواطفَ جياشة وأحاسيسَ تجعلها مضطربة، خائفة، كأنها ماضية إلى عوالم مجهولة لن تعود منها.

أسندت ظهرها إلى الجدار، ثم أطلقت لحبل أفكارها العنان:

لو أن الله فتح لنا باباً آخر من أبواب الرزق فأراحنا من السفر إلى "شامبقو" البعيدة!

– ألا يمكن أن نزرع الفولَ هنا في "عونا"[١]؟

– ولكن ما الذي يكدّرني اليوم وقد تعوّدتُ على ذلك! ثلاثة مواسم قضيتها بين حقول الفول و"الماشيلا"[٢] أكابد المشاقّ وأتحمّل عناءَ العمل ساعاتٍ طويلةً في أرضٍ تصهرها حرارةُ الصيف بشمسٍ حارقةٍ كالأتون..

– آه يا أبي، فلتخلد روحك في جنّات الخلد مع الصدّيقين والشهداء، فقد كنتَ تشقى وتكدّ من أجلنا. الان فقط أدركتُ ما كان يصيبك من تعبٍ وعناءٍ كنتَ تُواريه تحت ابتسامةٍ وضيئة تلْقانا بها

---

[1] ضاحية من ضواحي مدينة "كرن".

[2] نوع من حبوب الذرة.

obeikandl.com

حين كنّا نستقبلك أنا وإخوتي في أطراف القرية عند انتهاء موسم الحصاد.

- عودتك التي كنّا ننتظرها بفارق الصبر ورائحة العرَق التي تعبق من ثيابك، ما أحَبّها إلى نفسي، لقد بتُّ أحِنُّ إليها.

- حنُوُّك يا أبي وعطفُكَ علينا، شهامتُك المعهودة بين أهل القرية و...

- تباً للمرأة الخائنة، التي سوَّلت لها نفسُها الدنيئةُ أن تبيع الوطنَ وترمي رجالاً بقامة "أرها" في جُبّ الغياب القسري.

- ما ذنبُ أبي حتي تشي به ليقْتُلَهُ الغرباءُ الذين تجرّدت قلوبهم من الرحمة والعدل؟!

- "بركة"[3].. آه، أيّ سخريةٍ مريرة أن يكون هذا اسمَ المرأة التي ترسل الرجال غدراً إلى الجحيم؟

- أليست مفارقةً عجيبة أن يكون هذا اسمَ المرأة التي تقتاتُ من خبز الأيتام، وتنشر الرعبَ بين الناس، وتمشي كأن شيئاً لم يكن؟!

بينما كانت "زهرة أرها" تسبحُ في بحر أفكارها وذكرياها المريرة، صفعَ أذنَها صوتٌ تألفُه جيداً، لكنه آخر ما توقّعت سماعَهُ في تلك اللحظة، ذلك لأهنا حين باغتها مخاضُ الحزن واستبدّ الأسى بها، آثرتْ

[3] أيّ تشابه أو تطابق في الأسماء، ليس مقصوداً، وإن حدثَ فبمحض الصدفة.

أن تتزوي بعيداً عن أمها وإخوتها الصغار حتى لا تحرِّك في نفوسِهم كوامنَ الحزن والألم الدفين.

لكنّ تلك المرأة الحاذقة اكتشفت بحاسّة الأمومة التي لا تخيب ولا تخطئ أن ثمة ما يُعكِّر صفو ابنتها الحبيبة، فاقتفت أثرها وسط المروج الخضراء بين شجيرات الجوافة والليمون في المزرعة المتاخمة لدارهنّ الكائنة على أطراف القرية.

كانت "زهرة أرها" تعتقد أنها بهروبها إلى ذلك المكان الموحش إنما تجفف دموعَ أحزانها من دون أن تثير الفضول، لحرصها على ألاّ تنكأ جراح أمها أو تشقيها بأكثر مما هي فيه، لكنّ اعتقادَها لم يكن مُصيباً، فقد بدا في قسمات وجهها حين عادت من عزلتها ما كان يفضح سرَّها، وسرعان ما انهارت أمام فراسة الأم التي كانت تضع إصبعها على الجرح دوماً، كأنها عرّافة تسبر أغوار الحقيقة ولا يخطئ حدسها.

– ما بال القمر يبدو حزيناً، شاحباً هكذا؟

تلعثمت "زهرة" واضطربت حين لامسَ صوتُ أمها الدافئ الرقيق، طبلتَي أذنيها، وبُهتت للمفاجأة، إذ كانت تركَتها في البيت واندسّت بين الأشجار الكثيفة وتسلّلت من دون أن يراها أحدٌ، فكيف اهتدت إليها، وكيف عرفت أنها هناك؟!

والحق يُقال، إنه ليس من قبيل المبالغة أن تصف تلك المرأة ابنتها ب"القمر"، فقد كانت "زهرة" على قدرٍ من الجمال كافٍ.

صحيحٌ أنه ليس ذلك الجمال الصارخ الذي يستدعي مخيلة الشعراء، لكنه على كل حال جمالٌ نالت منه منغِّصات الحياة وسيّجته بغيمةٍ سوداء ودفنت محاسنه تحت ركام المحن، فبدا مُهمَلاً، منسيّاً، لا يدرّ لصاحبته سوى العطف والشفقة.

شاءت الأقدار أن تحمل تلك اليافعة هَمّ الأسرة باكراً قبل أن ينضج عودها، فأمها مريضة لا تقوى على شيء، وأبوها الذي مات لم يترك لها سوى إخوةٍ صغار ودموع غزيرة.

منذ أن وعت وأبصرت النور، وجدت نفسها وحيدة كصخرةٍ عنيدة.

تصلّبت في بحرٍ متلاطم الأمواج، ولكن رغم ذلك فقد حباها الله مقدرةً تفوق الوصف في امتصاص الألم ومُداراة الجُرح حتى عن أقرب الناس إليها.

وحين شمَّرت عن ساعدَيها لتسدّ رمق إخوتها وتَقيهم سطوة الحر وزمهرير الشتاء، لم يكن عمرها قد تجاوز الثانية عشرة بعد.

هكذا وجدتْ نفسَها تُزاحم الرجال في الحقول والأسواق، ثم تعود إلى بيتها في غسق الليل بجسدٍ ضامرٍ نحيل تعبث الرياح به وينخره البرد.

- ما بال القمر يبدو حزيناً، شاحباً هكذا؟

لم تكن تحفل بمثل هذا الإطراء الذي تتمنى سماعَهُ وتطرب له كلُّ النساء في وجه الأرض، ليس لأن ذلك لا يروق لها أو لأنه ترفٌ يجب أن تغض الطرف عنه في خضمّ سعيها الدؤوب لإرساء دعائم تلك الأسرة التي عصفتْ بها الأقدار.

كلا، فالغواني يغريهُنّ الثناء، وكثيراً ما سمعتْ أكثر من مرة ورأتْ بأم عينها ولعَ الشباب وشغفهم بها، بل كثيراً ما رأتهم يتبارون ويسعون لكسب ودها، فقد أدركت قبل أمها أنها "صنوُ القمر".

لكنّ "زهرة" التي فارقت دنيا النواعم والرقة والجمال ولم تعد تلك المعاني مُدرجةً في جدول اهتماماتها اليومية، لم تكن تطمح في تلك اللحظة لأكثر من أن يجعل الله في ردِّها برداً وسلاماً على أمها المريضة، التي لم يعد قلبها المتعَب العليل، يتحمل مثقالَ ذرة من الأحزان والآلام.

لقد عانت تلك المرأة وتجرعت كأسَ الهوان حين فقدت زوجها الذي انتزعه البرابرةُ القساة من بين أحضانها، وذبحوه كما تُذبَح الشاة، ثم رموا جثته على قارعة الطريق.

لم تكن "زهرة" حينذاك قد تجاوزت الخامسة من العمر، لكنّ تلك الذكرى المشؤومة ما زالت تلحّ على مخيلتها، فيحتدم الحزن ويضطَرِم ليورثها آلاماً لا حدود لها.

وهي إن تنسَ فلن تنسى ملامح ذلك الدركي الوغد، الذي ركلها بحذائه حين تشبثت بأبيها المكبَّل بالقيود والذي طفرت من عينيه دمعةُ حزن بللت لحيتَهُ الكثه.

لقد مضى على ذلك عقد من الزمن، لكنها ما زالت تداري في حناياها حزناً تحاول أن تخفيه عن أمها، ثم لا يلبث أن يثور ويغلي كالمرْجَل، فماذا تصنع؟

– مَن يثأر لأبيها؟

– مَن ينتقم لها من تلك "الجاسوسة" اللعينة التي غدرتْ بوالدها الحبيب؟

– مَن يضمِّد جراح أمّها النازفة إن تقاعست هي عن ذلك؟

فقد عاشت ردحاً من الزمن في كنف الجهل بما اعترى حياتهم من بؤسٍ جرّهم إليه تلك المرأة الفاجرة، أما اليوم وقد زالت تلك الغشاوة وطفح كيل الحزن والأسى، فحريٌّ بها أن تفعل شيئاً يسكِّن جراحها النازفة ويعيد لها كرامتها المسلوبة.

Obeikandl.com

– ليس أتعس من أن ترى نفسك وحيداً تواجه العالم الذي لا يصغي إليك!

توقفت قليلاً سارحةً ببصرها في أفقٍ بلا نهاية ثم استطردت:

– على كثرة ما في "عونا" من رجال، إلا أن أحداً منهم لم يَهبّ لنصرتها!

قبل أن تشطح في خيالها وتصوراتها الخاطئة، تذكرت "منصور" الذي حدّثها ذات مساء أن القرية تفقد واحداً أو اثنين من أبنائها الشبّان يومياً، وأنه قد قرر أن يلحق بهم ليشارك في استعادة الحرية للوطن الجريح.

سرحت ببالها بعيداً في عوالم ذلك الشاب الشهم، الذي باتت تنظر إليه كفارس أحلام تتمنى أن تقترن به، ثم ارتمت في أحضان أمها وأجهشت بالبكاء.

– "شامبقو" ليست بعيدة يا بنيّتي، وغيابك لن يطول بإذن الله، كفكفي دموعك ولا تحزني.

لم تضع إصبعها على الجرح هذه المرة، ولم تفلح في الوصول إلى كُنْهِ الحقيقة التي تؤرق بال ابنتها، لكنها على كل حال لم تذهب بعيداً في ظنها، فقد نجد في استنتاجها جزءاً من الوساوس والهموم التي تهجس بها الصبية.

أما "زهرة" فقد كادت تسدد في وجه أمّها لطمة موجعة حين قررت أن تزيح عن صدرها باروداً تأجج ناره في دواخلها فتقول:

– لن أذهب إلى "شامبقو" غداً، بل سأنضم إلى "جيش التحرير"، لأناضل ضد العدو الذي يجثم فوق صدورنا!

لكنّ الكلمات تحشرجت في صدرها، ولم يقْوَ لسانها على النطق، فلاذت بالصمت، وجعلت تصوِّب عينيها نحو سماء ملبّدة بالغيوم.

***

كانت "عونا" في ذلك الخريف قد تزيّنت بخضرة شاملة، ولبست أشجار السدر ثياباً من الخضرة اليانعة، وتفتّحت الورود والزهور على مرمى البصر في كل الاتجاهات.

تحرك "اللترينو"[٤] مسرعاً وجعل يتلوى بهم كالأفعى بين الجبال الشاهقة.

وئيداً وئيداً كانت الشمس تنحدر وتلقي بظلالٍ باهتة تتلصص بين السحب الراحلة، فتختفي تارةً وتَظهر أخرى.

التفتت "زهرة" إلى الوراء، فلاحت لها "عونا" من بعيد تحفةً بديعةً نادرة.

[4] كلمة إيطالية تعني قطار البخار الذي يجر أكثر من عربة.

فتحت النافذة وسرحت ببصرها بعيداً.

كانت غزلانُ الريل ذات القرون المعقوفة تتقافز، وقد تجمّعت قطعان من القرود المبرقعة حول غديرٍ أسفل الجبل.

"ما أروع هذا المشهد!"، قالت "سعاد" وهي تشير إلى سربٍ من الطيور الملونة اصطفّت في طيرانها في خطوطٍ متماوجة.

ظلت "زهرة" ساهمة تحدِّق في الأفق البعيد.

"انظروا كيف تحتفل الطيور بالحياة، بينما تتلفّح (زهرة) ثوبَ الحداد"، تابعت "سعاد" كأنما تخاطب جمعاً من الناس.

لم تفلح "زهرة" في كبح تيارٍ من الحزن الصاخب سرى في قلبها منسرباً عبر مسامّ ذاكرتها الجريحة، فانكفأت على نفسها ولم تُعِرْ صديقتها اهتماماً، بل رمقتها بنظرةٍ حانقة ثم أرسلت بصرها مرةً أخرى بعيداً عبر النافذة.

- لقد ضرب الفقر أطنابَهُ وصرنا نتكبد المشاق من أجل لقمة العيش التي لم تكن قبل ظهور هذه "الثورة" هَمّاً أو مطلباً، فقد كنا نعيش في رغدٍ وصفاء.

عادت "سعاد" تحكي ظانّةً أنها بذلك التحليل السطحي تصيب كبدَ الحقيقة.

اكتفت "زهرة" بزمّ شفتيها كعادها حين تستثقل الآخرين وتمل ّحديثهم.

سادت فترة صمت تخلّلها وقْعُ المطر يصفع الألواح الزجاجية للنافذة.

زاد "اللترينو" سرعته، فلاحت أكواخ "قِرسا" من بعيد.

بدت كأنها تسير عكس اتجاه "اللترينو" الذي كانت عجلاته تنهب الأرض نهباً فتُحدث الضوضاء.

خلال الرحلة الطويلة لم تتفوه "زهرة" سوى بعباراتٍ موجَزة ومقتضَبَة، فقد شغلت نفسها بهمومٍ وهواجس لم تكن تهدأ في نفسها حتى تثور من جديد، فقد حدّثها "منصور" ذات مساءٍ ككل مساءات "عونا" المنكفئة على ضفاف معاناتِها، بسرٍّ عظيم ما كان يريد أن يبوح به لأحد، لكنه ضعُفَ أمامها حين استفزت مشاعره بسؤال حرَّك في نفسه نخوةَ الرجال:

– متى سيأتي دورك وتلحق بالأبطال في "الميدان"؟

لم تكن ترغب أو تتمنى أن تفرِّق الأيام بينهما، لكنها كانت تنظر إلى أولئك المناضلين بعين الرضى وتتمنى أن يكون فارسُ أحلامها واحداً منهم.

obeikandl.com

هكذا غرزت خنجراً في صميم رجولته، فزأر في وجهها وهو يلوِّح بمديةٍ انعكس بريقُها تحت أشعة القمر:

– لن أغادر "عونا" قبل أن أمزِّق أحشاءَها وأسفك دمها مثلما فعلتْ بخيرة رجالنا!

لم يكن يساورها الشك في وفاء "منصور" وصدق عزيمته، لكنها انغمست بكل حواسها في تحليل السيناريو القادم، فهل سيمر الحدث كما تمر النكبات بأهلها يوماً بعد الآخر؟

وهل سيكتفي الأعداء بتأبين عمليتهم؟

هل....

قبل أن تستدير الأسئلة في فمها دورةً كاملة، كانت صافرة "اللترينو" تدوي وسط السكون الساجي لتعلن انتهاء الرحلة والوصول إلى "شامبقو".

أما هناك في "عونا"، فقد طافت بذهن "منصور" أسئلة مريرة، فوقف فوق أعلى قمة تشرف على القرية المكلومة بالحزن المباغت وشبح الموت الذي يطوف حولها مثل غربان تنعق حول جثةٍ ملقاة في العراء.

– متى تورق الجذور اليابسة ويخضَرّ اليباب؟

– متى همي سحائب الفرح في روابي "عونا" لتخْضَرّ مساحات الأماني المخمليّة؟

obeikandl.com

– متي يعود "شكيني" ورفاقه الذين مروا من هنا ولم يتركوا معالمَ لخُطاهم؟

كانت عيناهُ مصوّبتَين باتجاه الأفق البعيد، وذراعاه تلوحان في الفضاء كشراعين تائهَين يبحران في المجهول.

لقد أعياه الانتظار ومزّق الحزن أشرعة أحلامه، لكنه لم يستسلم ولم يذعن لنداءٍ ساحرٍ يورث في نفسه الحنق:

– انكفئ على أحزانك ومُتْ غيظاً أيها المتخاذل الجبان!

تحسس خنجره ثم جعل يسْتَنّه في حجرٍ أملس، ثم ينظر إليه فيعيد الكرّة مرةً أخرى حتى صار الخنجر يلمع وينعكس بريقه تحت ضوء القمر الذي بدأ يخبو خلف السحب الراحلة.

كانت الرياح تزمجر، والأمواج تهدر وتنوح، كأنها تقرع أجراس الحزن لجنازةِ طفل شقيّ لفظَ البحرُ جثّته.

وحين بدأ الضباب يطمس كل شيء كان "منصور" يتجه بثباتٍ صوب الهدف.

كانت "بركة" قد شرعت في حياكة كفنٍ جديد لضحيةٍ جديدة.

إنها امرأة سافلة تبدو مثل حية رقطاء تنفث سموم أحقادها فتشعر بنشوةٍ عارمة، ثم تمشي على الأرض متبخترة كأنها أنجزت مهمة نبيلة.

obeikandl.com

توقّف مبهوتاً حين رآها تتلصص عبر النافذة على جارها "أسناي" الذي كان يُعِدّ وجبة العشاء للفدائيين المرابطين خلف جبل "سالا"!

"ود أسبر"[5]، صاح "منصور" وقد طرأ على باله خاطر مزعج: أن تفقد "عونا" رجلاً بقامة "أسناي".

"لا.. لا.."، قال، ثم اتجه صوبها وانقضّ عليها، فاستسلمت له وقد ألجم الخوفُ والفزع صوتها، وانكتمت صرختها كما انكتمت أنفاسها بعد ثوانٍ قليلة.

"لماذا يحتاج الوطن دائماً إلى الدماء كما يحتاج السمكُ إلى الماء؟"، تساءل "منصور" وهو يغُذّ السير لاحقاً بالرَّكْب الميمون.

***

وهنا، في "شامبقو"، حيث تمتد حقول الفول والذرة بامتداد البصر، وتسدّ الخضرةُ وجهَ الأفق فتستحيل المرائي اخضراراً يبعث في النفس فرحاً نادراً.. في هذه الأرض البكر تجيش الحياة في دفقاتٍ مدهشة، فتمتلئ المشاهد بالحيوية، وتعج القرية بالناس، تسمع دندناتهم وسطَ الحقول كأغاني البحَّارة حين يرفعون المراسي وينشرون أشرعة الرحيل.

---

[5] تتنادى معظم القبائل الإريترية بكنيات محددة تُستخدم للتعبير عن الفخر والشجاعه، والدهشة أحياناً.

أصوات تعلو وتخفت.. قهقهات تبدو آتية من فجٍّ بعيد.. أنغامُ ربابة شجية تُدَوْزِن أغنية عاطفية قديمة و.. وسط ذلك الكرنفال البهيج تناهت إلى سمعها همهماتٌ تبدّت لها مثل صرخة مكتومة، فالتفتت "زهرة" إلى "سعاد" التي كانت تبكي بحرقةِ مَن فَقَدَ عزيزاً لديه!

– ما الذي نكأ جرحَ الذاكرة الآن؟

تساءلت مندهشةً من تلك الصحوة المفاجئة لرفيقة العمر التي استجابت أخيراً لأوتار الأيام التي لامست مشاعرها الجامدة.

كغيرِها من الناس كانت "سعاد" قد استكانت، ولم تجد مفراً من العيش تحت دخان الموت وصراخ الفواجع وقد أرغمها على الاستسلام، ذلك الخنوع الذي كان يظلل قريتها وأهلها الذين رضُوا بما قدَّر الله لهم، فعاشوا رازحين تحت ثقل الظلم والفقر والظلمات، لكنّ شيئاً ما قد تحرّك في دواخلها اليوم ودحرجها من فضاء الغياب إلى أرض الواقع.

"سبحان الله"، قالت "زهرة" ثم أضافت: "كأننا لاندرك قيمة الأشياء إلا حين نفتقدها، فقد عاشت (سعاد) بيننا كوردٍ شحيح الرائحة، ناقصة الحواس مثل أيّ مخلوق يمشي على الأرض ولا تعبأ الحياةُ به، فما الذي استيقظ في دواخلها الآن؟".

Obeikandl.com

"ما الذي يكدِّر صفاء الورد؟"، سألَتْها مستخدمةً الأسلوب نفسه الذي كانت تدلّلها أمُّها به.

– إنه ألَمُ الفراق الذي يعتصر أحشائي.

– أتحبين "عونا"؟

"حتى النخاع"، أجابت "سعاد" ثم أضافت: "لا أتصور العيش بعيداً عن (عونا)، فهي الأكسجين الذي أتنفسه، أتمنى أن تمر الأيام سريعاً لنعود إليها ونستنشق هواءها النقي".

لامست الكلمات مسامع "زهرة"، ومرت على أُذنيها كنسمة لطيفة عابرة، فاغتنمت الفرصةَ لتضيء مساحات العتمة وتهيئ لصديقتها براحاً لالتقاط الصور الخفيّة والمعالم المنسيّة:

– من يحب "عونا" يا "سعاد"، يجب أن يتذكر ويحب أولئك الرجال الذين أدمنوا الرحيل إلى الأقاصي وتقاسموا الموت حرقاً وشنقاً حين هتفوا لإشراقة الشمس النديّة في سماء الوطن الحبيب.

رانَ صمت رهيب تابعت "سعاد" خلاله وميضاً يشعّ مثل منارات السواحل، فقد تبدّت لها كل كلمة من كلمات صديقتها نقطةَ ضوءٍ في نهاية نفقٍ مظلم.

أما "زهرة" فقد طافت في ذهنها باقةٌ من الأسماء التي تنفح في الروح قبساً من سناء الشمس المشرقة: كبيري، سلطان، أبو رجيلة، عبدالله ديقول، حامد جمع، قندفل، عثمان صالح، جمجام، طمبار...

- شيء جميل أن نحب الأرض التي غرستْ في سويدائنا بذورَ العشق وهيّأت لنا مرقداً في ضفاف النهر نستلهم من خريرهِ معنى الحب، ولكن....

تأوهت "زهرة" وارتسمت في قسمات وجهها علاماتُ الحزن، بينما ظلت "سعاد" تترقب ما بعد كلمة "لكن" التي توقفت عندها "زهرة"، كأنها تتابع مسلسلاً دراميا مشوّقاً.

- لكن أختاه، الحب وحده لا يكفي لإطفاء الحريق الذي يكتنز في باطن هذه الأرض، والجور الذي يدنّسها و...

توقفت عن الكلام وجعلت تختلس النظر باهتمام إلى ذلك الشاب الأسمر، الموشوم بمفاصد بارزة موزعة بين خدّيه بالتساوي.

كان واقفاً قبالتها كالصنم، جامداً مثل تمثالٍ من الشمع، لكنّ شفتيه كانتا تتحركان فيندّ عنهما صوتٌ أقرب إلى الهمس منه إلى الجهر.. وشوشة لم تستطع ترجمتها إلى حروف واضحة البيان.

- إنه "بهدوراي"، الشاب الدمث الذي أجمعَ الناس على حبه، تُرى ما الذي جاء به الآن، وماذا يريد مني أنا التي لم أتحدث إليه من قرب من قبل ولم تجمعني به أيُّ مناسبة للحديث؟

تساءلت "زهرة"، ثم أشاحت عنه، لكنها ظلت تتابعه بطرفَي عينيها حتى تيقنت من ظنونها حين لوَّح لها بلفافة مغطّاة بكيس من البلاستيك الشفاف.

استأذنت صديقتها، ثم تبعته إلى داخل الحقل وسارت بمحاذاته تسبقها لهفةٌ لمعرفة ما يريد منها.

ابتسم "بهدوراي" وهو يناولها الرسالة التي غلّفها بكيس البلاستيك حرصاً منه حتى لا تبتلّ بمياه الأمطار الغزيرة التي تدفقت من سماء "شامبقو" كما لم تتدفق من قبل.

بيدٍ راعشة تناولت الرسالةَ، ثم فضّت الظرفَ وغاصت بكل حواسها بين الحروف:

إلى "زهرة عونا" الجميلة...

كم هي شاحبةٌ أضواء القناديل بعيداً عنكِ، ورحلة العمر من دونكِ صحراءٌ خرافيةُ الامتداد مشيْتُها مرغَماً، لكني لن أستسلم حتى أعْبُرَ جسر التلاقي لأثبت أن للزهر حضوراً على شرفة العمر، وأنكِ ما زلتِ تتربعين هنا في حنايا الذاكرة.

لقد تعلّمْنا من أشجار "العركوكباي" يا "زهرة" أن نقف على الجرحِ ونخوض لهيبَ المسافات بصبرٍ وجلد، فكل بداية تتبعها نهاية.

يسرني أن أزفّ إليكِ هذا الخبر الجميل؛ فقد تحقّق جزء من أحلامي بانضمامي إلى "جيش التحرير" هنا في "بركة"، وأتمنى أن يتحقق الحلم الأكبر حين تنثر الشمسُ بذورَ الضياء في ربوع "عونا" ويلتئم الشملُ هناك.

obeikandl.com

أرجو ألاّ تحزني يا "زهرة" ولا تدعي اليأسَ يتسلل إلى قلبكِ، فما زال في قنديل الثورة وهجٌ يتلألأ ويرشح بالسنا ليضيءَ العتمةَ ويغمرنا فرحاً وتفاؤلاً بأن الغد هو أجمل الأيام[٦].

ستفيض أيامُنا فرحاً واخضراراً وانتصاراتٍ تسحق أوهام الظلاميين الذين أعمى الحقدُ الدفينُ قلوبَهم، فشرعوا يبحثون عن قناديل لإطفائها، ولكن هيهات هيهات، فإن الشعلة التي أوقدها "عواتي"[٧] ورفاقه لن تنطفئ بإذن الله.

جحافل الهمج يا "زهرة" لن تطفئ بريقَ الأمل الذي يتسع في دواخلنا يوماً بعد الآخر، فأبشري بالنصر.

منصور نوراي..

"الميدان".

اخْضَرّ المدى أمامها فراسخَ تموج بالفرح وتنشر أشرعةَ العطر فوق الشرفات.

لقد كانت حتى الأمس القريب تنظر إلى خريطة الوطن من خلال ثقبٍ في قلبها الجريح، لكنها اليوم ستستلهم فكرة شموخ "العركوكباي" وصمودها في وجه العواصف والرياح.

---

[6] من أقوال ناظم حكمّت.

[7] مُفجِّر الثورة الإريترية.

شكراً لــ"منصور" الذي يلوح لها دائماً كطوق نجاةٍ عند الملمّات.

تأملت قرصَ الشمس المتوهج بالحمرة في نهاية الأفق، ثم بدأت في اجترار الذكريات عن "عونا" وأهلها الذين يشكّلون طيفاً جميلاً في خيالها.

تتابعت في ذهنها الأحداث في لقطاتٍ متقطعة كومضات قصيرة، أو كمدّ البحر الذي يثور ويندفع ليتلاشى في الشاطئ حين تمتصه الرمال.

لقد عاشت ماضياً تحوطه الكوارث والأحزان ويملأ لحظاتِه الجورُ والفقر والمسغبة، وها هو ذا فجرٌ يبزغ في دنياها ليبدد ظلام الأمس ويبشّرها بغدٍ مشرق.

أعادت قراءة الرسالة مرة أخرى، فانبثق في قلبها وللمرة الأولى شعورٌ تمنّت أن تتوقف عنده دورةُ الحياة وسيرورتها.

أتمنى أن يتحقق الحلم الأكبر حين تنثر الشمسُ بذورَ الضياء في ربوع "عونا" ويلتئم الشمل هناك.

– آمين يا رب.. آمين يا رب.

تتضرع "زهرة" وترفع كفّيها إلى السماء، ثم تعود مرة أخرى لنبش الذكريات واستعادة ما حملته رسالة "منصور" إليها.

ستفيض أيامُنا فرحاً واخضراراً و.....

وهل يوجد في كنانةِ أمانيها سوى سهمٍ واحد تصوّبه لتمطر السماءُ فرحاً واخضراراً، وتعود إلى شفتيها الابتسامةُ التي خُطفت في الظلام؟

هكذا قادها تلك الرسالة من دوامة التيه إلى فسحة الأمل، فلاحظت ذلك "سعاد" التي ظلت لبرهةٍ من الزمن مستنفرةَ الحواس، مبهوتة تنظر باهتمام شديد لما يدور بالقرب منها، فخامر ذهنَها مزيجٌ من الخوف والدهشة والفضول.

– تُرى بأيّ خبر مفجع قد جاء "بهدوراي" الآن؟

تساءلت بتوجُّس وخيفة من أن يكون مكروهاً قد حدث للأهل هناك في "عونا"، لكنها سرعان ما استبعدت ذلك الخاطر المزعج حين رأت هالةً من الفرح تشع في وجه صديقتها.

– إذاً هو "منصور" ولا أحد غيره يعبث بأوتار مشاعرها.

قالت وهي تتلهّى بالنظر إلى الغيوم التي تكاثفت لتغطي سماء "شامبقو".

أما "زهرة"، فقد انبجس شعور غريب في داخلها، فهَزّها هَزّاً عنيفاً:

شجنٌ يعبث بأوتار الذكريات، وفرحٌ يترجرج في الأعماق!

ترقرقَ الدمع في خدّيها وسال مثل حبيبات الندى.

طوت الرسالةَ ودسّتها في جيب فستانها ذي الأكمام الطويلة، ثم مشت بين سنابل القمح تنْشُد أقصر الطرق لملاقاة صديقتها.

Obeikandl.com

كانت الطبيعةُ قد تمرّدت في ذلك العام، أو لعلها "تآمرت" ضد سكان "عونا" وفق تعبير "ود قمش" الذي يجنح دائماً إلى فلسفة الأمور وطلائها بالأسود القاتم إمعاناً منه في التشاؤم.

حلّ الشتاء بغير عادته، قاسياً، يحمل في ما يحمل كوارثَ وأمراضاً لا تحتملها تلك الأجساد الطرية التي هدّها الفقر والجوع، ونالت منها آفة الحرب التي ظلت تفتح فمَها لالتهام المزيد من أحلامها البسيطة.

ربما كانت تعليقات "ود قمش" وكلماته الساخطة تعبِّر عن حالة من الإحباط المزمن واليأس الذي استوطن الديار التي حباها الله جمالاً يفوق الوصف، لكنّ يداً خفية امتدت في الظلام لتحرمها نعمة الاستقرار والعيش الهانئ.

لم تكن لــ"ود قمش" جذورٌ راسخة في "عونا"، وليس من أحد يستطيع أن يحدد الوجهة التي أتى منها، فقد اختلف الناس في أمره كأنه نبت شيطاني نما في غفلةٍ من الدهر.. وقد ساهم هو في رسم دائرة الشك حوله بتصرفاته المثيرة للجدل، فقد كان يدسّ أنفه في كل كبيرة وصغيرة من شؤون القرية، ولم يكن يأبه لنظرات الناس الحانقة والمستنكرة حتى استطاع بصبرٍ يُحسَد عليه أن يذوّب جبل الجليد الذي يباعد مساحات التفاهم بينه وبينهم، بل إنه استمال قلوبهم حتى صار يزاحم أعيان القرية في أبراجهم العالية.

لم تكن العلاقة بين "ود قمش" و"منصور" على ما يرام، فحين كان الناس يدعون لـــ"منصور" بالعودة ظافراً وسالماً من الأذى، كان هو مسروراً مبتهجاً برحيل "منصور" لأنه يعلم جيداَ أن الرجال الذين يلتحقون بالجبهة لا يعودون منها إلاّ جثثاً مشوّهة بالرصاص.

لقد أسرف أولئك الناس الطيبون في احتضانه بمشاعر دافئة، لكنه ليس من النوع الذي يراعي الأصول أو يحفظ الجميل.

هكذا راودته نفسه الأمّارة بالسوء؛ أن يقطف من بستان "عونا" وردةً يعلم أنها لن تنفح بالشذى إلاّ لمن رعاها وسقاها بماء القلب.

"يجب أن يموت (منصور) أو يُستشهد، لا فرق!"، قال ثم وهو يمطّ شفتيه بابتسامة ماكرة.

– حينها ستخلو الطريق أمامي، وأطلب يدها.

صمت قليلاً ثم افترّ فمه عن أسنان صدئة:

– سأتزوج "زهرة"، سأتزوجها، ولا يهم إن كانت تحبني أو لا تحبني.

طاف به الخيال، فتصوّر نفسه جالساً بالقرب منها، يناجيها فتبسم له.

التمعت دموعٌ في عينيه، إنها دموع الفرح التي ظلت مخبأة منذ زمن بعيد في زاوية من زوايا قلبه الذي لم يعرف الفرح من قبل.

كانت الشمس تتوارى تحت الأفق البعيد مثل سفينة تغرق في البحر وتتلاشى في أغواره شيئاً فشيئاً.

وحين طمس الظلام كل شيء كان "ود قمش" ينام ملء جفنيه وفَراشات الأحلام الجميلة ترفرف حوله.

كان البرد قارساً، والرياح تزمجر مثل أسدٍ يتضور جوعاً.

تكوَّم في فِراشه وأسلم رأسه لأحلامٍ كثيراً ما راودته في اليقظة وظلت عصية على المنال.

رآها تصرخ وتهيل على رأسها التراب، تبكي وتلطم خدَّها.

لم يحرِّك ذلك المشهدُ مشاعره الحقودة، فقد غادر العطفُ قلبَهُ، أو لعلّ العطف لم يسلكا طريقاً إلى قلبه المتحجّر يوماً ما.

ذكريات الطفولة البائسة ظلت محفورة في داخله، تورث سعيرَ الأحقاد وتجعله ناقماً على كل من حوله.

كان يؤلمه ويزعجه مشهدُ الأم التي تغدق على ابنها الحُبَّ، بينما يظل هو يفتقد دفءَ العائلة وحنان الأم، فمنذ أن لامست قدماه الأرض، وجد نفسه وحيداً غريباً لا يعرف؛ أمِن ثقبٍ في السماء قد هبط، أم من جُحْرٍ في الأرض قد خرج!

اهترأ السؤال على شفتيه من دون أن يجيبه أحد، فقد أشاح الناس عنه واكتفوا بنظراتٍ ملؤها الشفقة والرحمة.

نظرات لم تكن لِتُسَكِّن جراحه المثخنة، بل تزيدها ألماً.

لم يجرؤ أحد أن يقذف في وجهه جمرَ الحقيقة الحارقة، ربما مراعاة لمشاعره، فليس أفظع من أن يوصَم المرء أو يُنادى ب "اللقيط"، أو ربما تقديراً لذلك الشيخ الوقور "قمش" الذي كفله واحتضنه حين رمته أمٌّ لا ترحم تحت أشجار "البلس"[8] ومضت غير مكترثة، ربما لتعود مرة أخرى وتقطف من حقل الرذيلة بذرةً فاسدة تزيد بها قائمةَ التعساء شخصاً آخر يحمل سمات "ود قمش" نفسها، أو ربما يكون أشد حقداً منه.

ظلت المرأة تبكي وتهيل على رأسها التراب.

تضرب صدرها بكفيها وتصيح:

"وا حسرتي عليك يا ابني الحبيب.. يا فلذة كبدي ويا..."..

كثر العدد وازدادت حدة البكاء.

جاء سربٌ آخر من النائحات، حاسرات الرؤوس كنَّ وقد هِلْنَ عليها التراب.

كُنَّ يحملنَ السيوف ويضربنَ الدفوف، وقد تكفّلت إحداهُنَّ بارتداء ملابس المتوفي إحياءً لعادةٍ قديمة وتقاليد ورثَنها عن أمهاتهنَّ

---

[8] التين الشوكي.

obeikandl.com

وجداهنَّ؛ فحين يموت الرجل في مقتبل العمر وهو أعزب، يفعلنَ ذلك تعبيراً عن اللوعة والحزن.

مشهد يبدو باعثاً للتأمل والضحك في آن، وإن انطوى في أعماقه على مأساة.

– واي.. واي.. هوي، واي..

اقترب "ود قمش" بفضول أكثر.

أصاخ السمع، فتناهى إليه الاسم الذي يتمنى دائماً أن يجده في قائمة الموتى والمفقودين:

– "منصور"، يا فارس القبيلة ويا ذخر الوطن، "منصور" يا ابن الفارس المقدام، "منصور" يا...

في تلك اللحظات كان الموت جاثماً حول المكان، فقد امتدت اليد الآثمة لتطمس معالم القرية وتمحوها من خريطة الوجود.

الموت الذي أوقد لهيبَ شراسته في ذلك اليوم، لم يستثنِ أحداً، ولعل "ود قمش" كان أول من تشظّى جسدُه وتفحّمَ مثلما تبخرت أحلامه السخيفة وهو يعانق فضاء الغياب.

وبينما كانت "سعاد" هُناك تلملم أشياءها استعداداً للعودة، انشغلت "زهرة" بكتابة رسالة لـــ"منصور" في الميدان، لكن إرسالها لم

يكن بالأمر السهل، خاصة أن "بهدوراي" الذي لعب دور الوسيط بين الثورة والشعب قد أُلقي القبض عليه، ولا يعرف مصيرَهُ أحد.

داهمها وحْيُ الشِّعر، فاستبدلت القصيدة بفكرة الرسالة، وللمرة الأولى شرعت في التغزل بعيون الوطن:

"أحبك (عونا) وأهفو لأقطف ورداً من بستانك

أحبك (عونا) وأهطل غيماً على أهدابك

أحبك (عونا)... أحبك (عونا)... أحبك".

لن تكون الرحلة شاقة هذه المرة ما دام حلم العودة إلى "عونا" أصبح هو الحافز.. فقط يجب أن تنضمّ الفراسخ وتنطوي المسافات.

تدحرج "اللترينو" بهم والسعادة تغمرهم.

نزلت "عافيت" في أول محطة، فودّعتها "سُعاد" بدموعٍ سخية، وشيّعتها "زهرة" بنظرة حزينة.

"سأزوركم في (عونا) إن شاء الله"، قالت "عافيت" بثقةٍ مهزوزة، إذ لم تكن واثقة من إنجاز وعدها في ظل العتمة التي كانت تلف حياتهم والخوف الذي ساد في ذلك العام تحديداً.

وعلى مشارف "حقات" حين دوّت صافرة "اللترينو"، دبّ النشاط في مفاصلهم، فبدأوا يتحركون ويثرثرون وقد انفرجت أساريرهم.

"هنا دارت المعركة"، قال صالح في صوت خافت أقرب إلى الهمس.

obeikandi.com

"يُقال إنهم أبلوا بلاءً حسناً"، أضاف مزهواً لأنه كان أول من التقط الخبر.

صمتوا مبهوتين وظلوا يستمعون إليه.

– قُتل ثمانية من أفراد العدو وتكبدوا خسائر فادحة في العتاد، بينما لم يخسر أبطالنا فرداً واحداً باستثناء "عمر سيدنا" الذي أُصيب بشظية في عنقه، لكنه والحمد لله يتماثل للشفاء.

تحدث صالح كأنه شارك في تلك المعركة.

– كان "الكمين" مُحْكَماً، فقد باغتوهم باتجاه "طنق اللحس" بحيث يكون الأعداء أسفل الهضبة، مما يسهل إصطيادهم، وهذا ما حدث فعلاً و...

حين نفد مخزون الكلام وكفّ صالح عن الثرثرة، هالهم ما رأوا عبر النوافذ في الأفق البعيد، حيث كانت أعمدة من الدخان الأسود الكثيف تتصاعد لتعانق السماء.

"إنها (عونا)"، صاح "إدريس نور"، "(عونا) تحترق!".

وضعت "زهرة" كفّيها على صدرها، وتمنت أن يكون ما تراهُ كابوساً أو حلماً عابراً، لكن الموت الذي يختار مَن نُحب وقتما يُحب كان يطوف حول القرية، وهكذا، كانت "عونا" حين وصلوا، قد استحالت رماداً تذروه الرياح.

Obeikandl.com

لم تحتمل "سعاد" المشهد، فجعلت تصرخ وتصرخ حتى أُغمي عليها ولم تعد تعي ما يدور حولها.

أما "ود حاج" المصاب بداء القلب، فقد شهق شهقةً واحدة ثم طاح على الأرض كجثة هامدة.

وحده صالح كان ثابتاً هادئاً، يدعوهم للتماسك والصبر، لكنه حين تذكّر ابنته "نورة" ذات السنوات الخمس لم يتمالك نفسه، فانفجر باكياً.

أما "زهرة" فقد بدا لها ما حدث كأنه لا يتعلق بها ولا يعنيها بشيء، فلا حزن ولا أسى.. لا بكاء ولا نحيب، ولا أي مشاعر من أي نوع. اكتفت فقط بالتحديق بذلك العالم الذي ينهار بعد أن كان يمثل لها كل الحياة.

آلاف من الذكريات والتفاصيل الجميلة مرّت أمامها في شريط متتابع وعرضٍ دقيق لم يُخْفِ حتى التفاصيل الصغيرة واللمحات العابرة في حياتها:

أمها التي كانت تغدق عليها الحب والعطف؛ إخوتها الصغار حين ينتظرون قدومها من العمل ويصرخون بصوتٍ واحد: "زهرة، زهرة"، فتدس يدها في جيبها لتضع في أياديهم الصغيرة "حلاوة محرقي" المصنَّعة في أغردات؛ "منصور" الذي علّمها أبجديات الحب لهذا الوطن الجريح، و....

يا للهول! لقد تلاشت "عونا" من خريطة الكون ولم يبقَ منها شيء سوى الرماد.

كأنما تبخرت وتصاعدت دخاناً أو بخاراً فوق قبة السماء!

ارْتَدَت الفراشات ثوب الحداد وما عادت قطرات الندى الرقراق تلثم خَدَّ الزهر، فقد خمدت روح الحياة في كل شيء، وعَلا صراخ الفجيعة ليعلن النهاية.

حتى طيور الحبارى غادرت أوكارها، واكتست أزهارُ الياسمين لونَ الرماد.

وزحفت الشمس ببطء خلف الروابي، منكسرةً حزينة، كأن الفجيعة طالت سناها فبزغَ باهتاً شاحباً يعتوره غبش واكفهرار.

الموت الأسود أطبق على الوجود جناحَين من فولاذ، واسْتَنَّ الرعب سيفَ البطش لينتهي كل شيء في لمحةِ بصر.

كيف لا، وقد نصب القُساة كميناً أمام كل وردةٍ، ودسّوا الألغام تحت الزنابق!

رَنَتْ "زهرة" بنظرها نحو القرية المكلومة، ثم نظرت باتجاه الربوة الناتئة كحدوة الحصان عند أطراف القرية حيث بدا الدمار مفجعاً.

أشاحت بصرها ثم دخلت في دوّامة الذهول مرةً أخرى.

"هنا كانت تلعب نورة"، قال صالح والدموع تنهمر من عينيه مشيراً باتجاه الربوة.

أما "سعاد" التي أفاقت من الغيبوية، فقد أصابتْ جسدَها ارتجافة وهي تتجول في ساحة الموت.

ران صمتٌ، ولم يحرك أحد ساكناً مكتفين بالذهول، ولم يكن من صوتٍ سوى نباح الكلاب التي نجت من المحرقة.

"إدريس نور" الذي كان الأكثر تماسكاً، بدأ يفقد اتزانه وينهار أمام فداحة المحنة وهول الكارثة.

وضع يديه فوق رأسه وندتْ عنه صرخةٌ خرجت من مكانٍ سحيق في أعماقه وقد جحظت عيناه اللتان ظلتا مثبتتان إلى أسفل الصخرة التي كان يجلس فوقها.

وحين نظروا إليه مستفهمين، أشار بيده إلى حفرةٍ صغيرة تحت الصخرة حيث كان يرقد "فرج نوراي"، شقيق "منصور" الأصغر، جثةً قضمها الرصاص كما يقضم الجرادُ أوراقَ الحقل.

لقد أفلت المسكين من الموت حرقاً، لكنه لم ينجُ من رصاص "الكوماندوس" الذين تربّصوا بكل من يمشي على قدمين.

استندت "زهرة" على كتف "صالح"، ثم نظرت إلى الأسفل، فانداح في دواخلها ما يشبه الزلزال. أما "سعاد" التي تعودت أن تواجه المواقف الصعبة بالانهيار وفقدان القدرة على التصرف، فقد ظلت في مكانها ترتجف كضوءِ شمعةٍ في مهب الريح.

"إكرام الميِّت دفنه"، قال صالح، ثم شرع في الحفر بعصاته الغليظة، بينما أخذ "إدريس نور" يجهِّز بعض الأخشاب والحجارة لإخفاء الجثة حتى لا تنبشها الكلاب.

انتهى صالح من تجهيز القبر، فوضعوا الجثة ثم قرأوا عليها القرآن وترحَّموا على الميت قبل أن يستعدّوا للرحيل.

"يجب أن ندخل (كرن) قبل حلول الظلام"، قال صالح، ثم بدأوا المسير.

قبل أن يهبطوا من التل المطلّ على القرية التفتت "زهرة" لتلقي نظرة الوداع على المكان الذي دُفن فيه حبلها السُّري ثم حزمت أمتعتها وأكداساً من حطام الذاكرة الجريحة التي سترافقها كالظل مهما امتد بها العُمر.

حين رنت من قمة "لالمبا" إلى المدينة القابعة أسفل الجبال التي تبدو كما لو أنها تستعد للرحيل، انساب في قلبها إحساسٌ بأن ثمة منغِّصات كثيرة تحجب جمال هذا الوطن.

"كرن" مدينةٌ تصارع الموج وتبحر عكس التيار، وهي في خضم هذا الصراع الرهيب لا تنفك باسمةَ الثغر، وإن بدتْ حزينة العينين.

حين بدأ المساء الحزين يتغلغل في ثنايا المدينة كانت "زهرة" تهيم في الطرقات على غير هدى.

obeikandi.com

"ها هي ذي جحافل الظلام تُسدل أستارها القاتمة من دون اكتراث لامرأةٍ ينوء كاهلها بالأحزان"، قالت كأنها تتحسر على عدم مطاوعتها لــ"سعاد" التي دعتها لمرافقتها إلى أهلها في "وازنتت" المستلقية على ضفاف أودية ترفدها القمم الشاهقة بمياه الأمطار الغزيرة في فصل الخريف.

بدأ الظلام يطبق أهدابه على الطرقات، وتلفح الكون أغنية حزينة، فنمت في صدرها وحشةٌ، وأخذت تتسلى بالنظر إلى الغيوم التي كانت تركض في السماء.

هطلت دموع الحزن من عينيها وجلست تبكي على نفسها وعلى الآخرين الذين تفقدهم الواحد تلو الآخر.

لم تكن تعرف أحداً في تلك المدينة الواسعة سوى العم "عتيل" الذي حدثها عنه "منصور" ووصفه لها بأوصافٍ جعلته يكبر في نظرها ويبدو أسطورةً موغلة في الخيال، فتمنّت أن تكحِّل عينيها برؤيته.

سارت في الطرقات وفي قلبها أمنية واحدة؛ أن تجد من يدلّها عليه.

"حقاً إنه إنسان خرافي، يستحق الثناء والإعجاب، ذلك الذي يغامر بحياته وقُوت أبنائه وتجارته الرابحة لأجل الوطن"، قالت بينما كان الشوق يستبدّ بها لملاقاة الرجل الذي وجدت فيه طوقَ النجاة والمَخرج الوحيد من مأزقٍ قذفتها فيه أقدارٌ مشؤومة.

obeikandi.com

خلت الطرقاتُ من الناس، وعمّ سكونٌ تخترقه بين الفينة والأخرى زفراتُ السكارى وضجيج الموسيقى الصاخبة التي تنبعث من الحانات المرصوصة وسط المدينة.

يا لخبث الأوغاد، فقد عمدوا إلى تحييد الشباب بإغراق المدينة ذات الطابع المحافظ في بحرٍ من الخمور، تماماً كما فعل الإنجليز بقبائل "الأبوريجنال" في أستراليا.

"سنجعل من هذه البارات القميئة رياضاً للأطفال أو مستشفيات للمرضى، يومَ يخرج هؤلاء الغرباء عن أرضنا"، رددت في سرها وهي تجول شوارع المدينة.

أعياها البحث حتى تورّمت قدماها من المسير، فجلست تحت المبنى المطل على "جيرافيوري"[٩] ترقب الطلَّ النديّ، المنداح بين مسام الروابي المحيطة بالمدينة إحاطةَ السوار بالمعصم.

تقاطرت السحب وزحفت بكثافة لتغطّي سماء المدينة ويعُمّ الظلام.

ضجت في أعماقها بحورٌ من الأشواق، فتمنت أن ترجع بَكرةُ الأيام القهقرى، لا لتعيد ترتيب الأحداث أو تثنيها عن تفريخ النوازل والأهوال التي ظلت تحاصرها. كلا. فقد نشأت "زهرة" في بيتٍ تحفّه الملائكة ويظلل عرشه القرآن، وكثيراً ما رأت والدها يواجه عشرات

---

[9] تعني باللغة الإيطالية: دائرة الزهور.

الأيام وخطوبها بالرضى والابتسامة وهو يردد: "الحمد لله على كل حال.. الحمدلله على كل حال".

لكنها كانت تجد وسط تلك الأهوال والزلازل مَن كان يبسط لها يداً تقودها إلى برّ الأمان، فأين منها تلك اليد الحانية؟

شعرت بالغثيان والتعب يسري في جسدها كله، فاتكأت على جدار "بلاسريبا"[١٠] ونامت وصورة والدها الذي كان نبعاً من حنان، لا تفارق عينيها.

لقد ارتبط الليل في مخيلتها بالوحوش التي تعيش في الغابات الكثيفة ثم تهجم في الظلام، فقد قتل الأوغاد والدها في جنح الليل، وقد رأت بعينيها فرسان قريتها يُعذَّبون بأيدٍ لا ترحم في بيوت الأشباح وسمعت آهاتهم تخترق سكون الليل، وها هي ذي تواجه الظلام بمفردها، فما أشقاها.

أخذت تخيط الطرقات ذهاباً وإياباً من دون توقُّف لتطرد الخوف والملل.

وحين أطل الصباح بوجهٍ خجول، لم تستطع شمسه أن تبعث الدفء الذي يمكِّنها من تحريك أصابعها التي كادت تتجمد من شدة البرد، فجلست متهالكة يُغالب عينيها النعاس.

---

[10] فيلا نُسبت لمالكها الإيطالي "ريبا".

غفتْ لبرهة من الزمن واستسلمت للنوم متكئةً على جدار أحد الأبنية العتيقة وسط المدينة.

أطل طيفُ أمها ذات الوجه الصبوح وقد بدت واجمةً تنظر إليها في صمت كأنها لا تعرفها.

هرولت "زهرة" باتجاهها مسرعةً ونار الشوق تتأجج في دواخلها وفي نفسها توق للعناق، لكنها فوجئت بها تبتعد عنها خطوتين كلما اقتربت منها خطوة.

هكذا أخذت تبتعد عن أنظارها مثل كَرز المغيب حين يتلاشى قرصُ الشمس في الأفق البعيد ويتوارى خلف الغياهب المظلمة.

يا له من حظّ تعيس حين يستحيل عناقُ الأحبة حلماً تترصد مسالكَهُ تضاريس وعرةٌ وحواجزٌ من الأمواه والضباب.

ولكن قبل أن تتلاشى صورة أمها التي برزت أمامها بسحنةٍ عبثَ الشقاء بها أيما عبث، حانتْ منها التفاتة، ثم رمت على كتفها "شالاً" مطرَّزاً بألوان زاهية، دعتها أن تتدثر به من الصقيع القارس، ثم ذابت في الفضاء مثل سحابةٍ عابرة.

انتفضت "زهرة" لتجد نفسها في قلب المدينة التي بدأ أهلها يتوافدون من جميع الأطراف إلى أسواقها العامرة بالمنتَجات المحلية الخالصة.

تداعت أمامها الذكريات وتقهقرت بها الأيام إلى الوراء حين كانت صغيرة تدرج ببطء في دنيا الطفولة والبراءة.

في ذلك الصباح الشتوي البارد حين التصقت بجدتها وهي ترتجف وأسنانها تكركر من شدة البرد، فدخلت عليهنَ جارتهنّ الحسناء "زينب" التي سألت جدتها تفسيراً لحلمٍ مشابه:

– رأيت في المنام زوجي المتوفي قبل سنوات وقد رمى على كتفي ثوباً جميلاً، ثم انصرف من دون أن ينبس!

"ويحكِ.."، قالت الجدة وهي تغرز عينيها الحادتين في وجه "زينب" التي ارتعدت من الخوف لاعتقادها الراسخ في صلاح تلك المرأة العجوز، وقربها من الله.

"أرجوك أخبريني، ماذا يعني ذلك؟!"، قالت "زينب" وهي تبكي وترتجف من شَعر الرأس إلى راحة القدمين.

بدا الذُّعر واضحاً في وجهها، وكانت أسنانها تصطكّ من الخوف، فجثت على ركبتيها وجعلت تقبِّل المرأة العجوز وتستدرّ عطفها، وترجوها أن تتلطف في استنباط تفسير يكون أقل كارثيةً من ذلك الذي رأته في عينيها، وسمعت زمجرةَ وعيدٍ في كلمة "ويحك" التي ليس بعدها سوى الطوفان.

تكلّفت الجدة كثيراً لتخفي صرامتها المعهودة، وكست وجهَها بابتسامة نابعة من قلب مفعَم بالشفقة والعطف، لكنها لم تكن مستعدة أن تنساق إلى آخر خطّ في مشوار العواطف وتكسر قيود التأدُّب في حضرة "المقدسات"، وما تفسير الأحلام الذي ورثته عن أجدادها إلا جزءٌ من تلك المقدسات كما تعتقد.

وهكذا حاولت أن تغرز النصلَ من دون أن تتألم الضحيةُ، تماماً كما يفعل الجزّار حين يخفي السكّين عن الشاة قبل أن يطرحها على الأرض ثم يذبحها من الوريد إلى الوريد.

"ليس بالضرورة أن يكون تفسيري لهذا الحلم صحيحاً، فقد أكون مخطئة والعلم عند الله"، قالت الجدة ثم انبرت تفسِّر لها ذلك الحلم المزعج: "لقد دعاكِ زوجكِ إلى القبر، وما الثوب الذي رماهُ على كتفكِ سوى الكفن!".

لم تكرّ سبحة الأيام كثيراً بعد ذلك، فقد استيقظت "زهرة" ذات صباحٍ حزين على صراخ نسوة يبكين "زينب" التي ماتت على فِراشها من دون أن تشكو مرضاً أو عارضاً.

سحّ الدمع من عينيها مدراراً، وبكت من دون أن تدري؛ أتبكي نفسَها أم تبكي جارتها، لكنها على كل حال لم تكن خائفة من الموت، فهي الآن تنظر إلى حقيقته برؤية محايدة، فسيان عندها الموت والحياة،

obeikandl.com

بل إنها قد نذرت نفسها لموتٍ لائق.. موت تعقبه حياة كريمة وعزة لوطنٍ ألهبت ظهرَهُ سياطُ الغدر وتكالبت عليه المحن.

***

لم تكن "عونا" وحدها التي تسرّب حفيفُ الظلمة في أضلاعها، وشرختها عاتيات المحن وقسوة الطُّغاة، فقد امتد الجرح وانتشر في كل شبر من الوطن، وتكسرت الأنصال على الأنصال، واقتسم الناسُ الحسرةَ التي بدت في عيونهم.

ظل النصل يترّ دماً، والتمعت وجوه القتلى على حوافه كشاهدٍ على المأساة.

هناك في "قندع" كانوا على موعد مع شرّ مستطير وحُزن يدُسّ ملحَ الحسرة في القلوب.

ذات ليلة شتوية باردة، رانَ صمت رهيب، فلم تكن تسمع غير همهمات الجنود وتحركاتهم بين الفينة والأخرى وهم يمشطون المدينة التي لفّها الخوف والترقب.

كانت الرياح تزمجر بين الأشجار وتطلق صفيراً كالنواح.

لم يتجرأ أحد ويخرج من منزله ليستطلع ما يحدث في الخارج، فقد كانت التحذيرات واضحة، والكل يعلم ما تعني كلمة "كبرفكو"[11] في قاموس الجيش البربري الغازي.

---

[11] تعني باللغة الإيطالية: حظر التجوال.

"كأنهم يداهمون منزل (حليباي)"، همست زينب لزوجها.

"لطفك يا رب"، قال زوجها ثم أسرَّ في أذنها:

– كل الوثائق موجودة معه، أرجو أن يكون قد تخلّص منها.

لم تفهم زوجته ما يقول، كل ما أقلقها ألاّ يفكر زوجها في الخروج ويتركها وحدها في الظلام المخيف.

دوَت صرخة مكلومة شقّت جدار الصمت، أعقبها نباح كلاب في أطراف الحي.

عمَّ الصمت مرةً أخرى، فنهض "هاكين"، ثم نظر عبر النافذة وأطل برأسه خارج المنزل وأخذ يصغي.

اختلطت أصوات الجنود ببكاء الأطفال ونباح الكلاب.

تمتم بآياتٍ من القرآن، ثم همّ بالخروج، فتعلّقت به زوجته وصاحت بصوتٍ واهن وهي ترتعد من الخوف:

– كيف تتركني وحدي في هذا الظلام الدامس؟

– دعيني أذهب لأرى ما يحدث، فليس من المروءة أن يواجه "حليباي" الموت وحده، بينما ننعم بالدفء والأمان في بيوتنا.

استل سيفه وانطلق وسط العتمة الكثيفة، وجعل يسرع الخُطى متمنياً أن تخيب ظنونه حتى لا تخسر "قندع" رجلاً بقامة "حليباي".

"ستحل بنا الكارثة إذا ضبط الأوغاد الوثائقَ التي يحتفظ بها"، قال وهو يشق طريقه مسرعاً باتجاه منزل "حليباي".

تتابعت الأفكار السوداء والاحتمالات المخيفة في مخيلته:

- إذا حدث ما أتوقّعه لا سمح الله، فهذا يعني أن "قندع" ستشيّع غداً خمسة وعشرين رجلاً وثمانية نساء أسماؤهم مدونة في كشوفات الاشتراكات الشهرية إلى مثواهم الأخير!

- رباه، ما الذي تخبئه لنا الأقدار!

كان "حليباي" كالدفق الهادر في عطائه، يتسم بالنزاهة والجرأة وحضور البديهة وكل الصفات الجميلة التي جعلتهم يُجمعون عليه ويزكّونه ليتشرف بمنصب "أمين السر" لخلية "قندع".

داهم الجنود المترل وعاثوا فيه فساداً.

- فتّشوا جيداً، انبشوا كل شيء ولاتتركوا خُرم إبرة، قلّبوا هنا وهناك و...

كان الضابطُ زائغُ العينين يأمر جنوده ويصيح فيهم ويده على الزناد!

"لقد تأخرتم قليلاً أيها الأوباش، وماكان (حليباي) ليمنحكم بهذه البساطة مبرراتٍ تُزيّنوا بها وجوهكم الكالحة وأنتم تقتلون الأبرياء بدمٍ بارد"، قال "حليباي" وهو يرمي بكل ما معه في المرحاض ثم وقف أمامهم شامخاً كالطود.

ولكن من يطفئ لظى الحقد الدفين في قلوب أولئك الأوغاد الغرباء؟

obeikandl.com

– إذن أنت "حليباي"، أليس كذلك؟

"بلى.."، قال "حليباي" الذي لم ينْدُ عنه ما يوحي بأنه خائف أو مرتبك.

– أين كنتَ تقابلهم؟

– مَن هم؟

– "الشفتة"!

– أُقسم بالله أنني لم أقابل أحداً من "الشفتة" منذ أن خلقني الله.

لم يشعر "حليباي" بالذنب، لأنه لم يكن يكذب، فقد كان يتعامل مع "الجبهة" وليس "الشفتة" كما يعتقد ذلك المعتوه.

"أنت تكذب"، قال الضابط وهو يصكّ أسنانه غيظاً لشعوره بأن أمانيه تتلاشى في أول مهمة له منذ أن جاء من خلف الحدود ممنّياً نفسه بتحقيق الكثير من الأحلام التي وعدوه بها والتي يراها تتبخر أمامه الآن.

– عفواً سيدي، فأنا والله لم أكذب قط، وثِقْ أن ما أقوله لك هو الحقيقة التي تنشدها، فأنا لم أرَ أحداً من "الشفتة" في حياتي أبداً.

تمتم الضابط بلغةٍ غريبة وهو يشير إليه وفي وجهه ثورةُ غضب وهياج، وخلال لحظاتٍ قليلة كان "حليباي" يحلّق في فضاء الغياب الأبدي لتزفّه "قندع" كلها فجر اليوم التالي في موكب مهيب.

حملَتْهُ الجموع الغاضبة على الأكتاف إلى مثواه الأخير، وهناك على حافة القبر تعاهَدَ الشباب ألاّ يعودوا إلى المدينة.

وهكذا قبل أن يجف الدم الطاهر كانوا قد التحقوا بـــ"الجبهة" وانخرطوا في صفوف المقاتلين.

كانوا خمسة وعشرين شاباً، فرِح القائد بقدومهم ورحّب بهم على طريقته الخاصه قائلاً:

– مرحباً بكم في جبهة التحرير الأريترية، هذه الجبهة هي مصنع الرجال والعزة والكرامة، فمن لا يأنس في نفسه كفاءة الرجال حين تحتدم المعركة وتزأر المدافع أرجو أن يعود فوراً إلى أحضان أمه!

صمت قليلاً ثم استطرد وهو يبرم فتلات شاربه الطويل كأنه يستفز رجولتهم:

– لكن أيها الشباب، تذكروا أن الأمهات في "نقفة" و"أغردات" و"كرن" قد وهبنَ الوطن أغلى ما يملكنَ في الوجود.

"انظروا هناك"، قال وهو يشير إلى ممرٍ ضيّقٍ أسفل الجبل، حيث كانت مجموعة من الفتيات يتلقّيْنَ التدريبات الخاصة باللياقة البدنية وتحمُّل المشاق.

– معنا هنا "آمنة" و"سعدية و"زينب" يقاتلنَ الأعداء الــ.......

دوّت ضحكة جماعية بددت صمت المكان وسكونه.

وجدَ شباب "قندع" أنفسهم أمام قائد كثيراً ما سمعوا عن بطولاته ومواقفه الطريفة، وكم تندروا بها في مجالسهم الخاصة بعيداً عن مجالس النساء، وها هم الآن يضحكون من أعماقهم لمجرد كلمة نابية وصف بها الأعداء.

يُقال إن ذلك القائد الذي تكسو الصرامة وجهه، كان يبالغ في التجهم والجديّة، وقليلاً ما كان يبتسم، أما ضحكته فذلك حدثٌ أندر من مطر الصيف.

لكن ربما كان ذلك اليوم استثناءً في حياته العسكرية، فقد افترّت شفتاه عن أسنان بيضاء ناصعة وهو ينظر إلى أبنائه يجلجلون بالضحك ويبدون حماسةً لمنازلة الأعداء.

– يا أولاد!

عاد "أبو شنب" إلى فطرته العسكرية الصارمة صارخاً في وجوههم، فعمّ الصمت كأن على رؤوسهم الطير.

– هذا هو المناضل الذى سيتولى مهام تدريبكم على استخدام السلاح وغير ذلك من المهام القتالية.

– إنه أحد أبطالنا الذين يصنعون المعجزات في المعارك ولا يخرجون منها إلا بنصيب الأسد.

– "منصور نوراي" الذي نفّذ العملية الفدائية الجريئة في "هيكوته"، فقتل اثنين من جنرالات العدو الذين ارتكبوا أبشع المجازر في "عونا" و"حرقيقو" و"أغردات".

– هل تعرفونه؟

– إنهُ..........

بينما مضى القائد في شحذ الهمم وتحفيز جنوده على الاستبسال ومقارعة العدو، كان منصور "يتمنى" أن يُنهي قائده حصة التعبئة كما كانوا يسمّونها، فقد كانت تمور بداخله آلاف من الذكريات والصور البهية.

ذكريات مَن حفرت رموشها نهراً من أمنيات، وانطبعت في قلبه، ثم مضت مستعصمةً ببعدٍ يعلم أنه سيطول.

هي أيضاً كانت تحدس بذلك، فقد همست له ذات يوم بعيد وهي تدفن حزنها في ابتسامةٍ محايدة وتغرز عينيها بعيداً صوب اللازورد:

– ستجد من يحبك أكثر يا "منصور"!

لم تشأ أن تقول له:

– سنفترق إلى الأبد.

بالطبع، لم تكن "زهرة" عرّافة تقرأ الطالع مثلما كانت جدتها تفعل، لكنها كانت تتوقع ذلك، إذ لم يكن يسطع في أفق أحلامها نجم أو بارقة أمل.

"ستجد من يحبك أكثر".

Obeikandl.com

عبارة مرّت على مسامعه يومَ ذاك كهفهفة النسيم من دون أن تخدش عواطفه أو تحِّرك في نفسه هواجس العشّاق، لكنه اليوم يبدو كمن استعاد ذاكرة مفقودة، يحاول أن يرمم جسراً آيلاً للسقوط!

تلك لحظةٌ رسمت ملامحَها في ذاكرته وانطوت في أعماقه كجرحٍ يأبى أن يندمل.

ما كان يحسبه دلالَ المحبين باتَ يتجسد أمامه واقعاً مريراً يلمسه ويحسّه، فقد طال الفراق من دون أن تلوح على حواف الأفق تباشير يوم سعيد يطفئ جمرَ المسافات والسفر الطويل.

كم قست عليه الأيام وكم قهرته المحن!

لقد ترمّدت جمرات الحجارة وهوت على رؤوس أهله في "عونا": مات شقيقه "فرج" الذي كان يحبه حباً لا يُضاهى، دُفنت أمه وشقيقتاه تحت ركام البيت القديم وتفحمت جثث مَن بادلهم حباً لا نظير له.

إنه الحزن الذي أمسى يحفر في تجاويف قلبه ندوباً ويغوص عميقاً في جسدٍ متهالكٍ، هَدّته التباريح والمحن.

ولكن لا بد لــ"منصور" أن يتوقف قليلاً ويمعن النظر هناك في نهاية النفق المظلم، حيث تشع ومضة يتألق بريقها حيناً ويخبو حيناً أخر.

تلكم هي "زهرة" التي تطلّ في دربه الكسيح بكل رونقها وبهائها وسط ذلك الموات، فتنفرج أساريره حين يساوره إحساس قوي بأنها لم

تكن ضمن قائمة المغدور بهم في تلك المجزرة الغاشمة، فيلوذ بالحروف يذرفها شِعراً يسيل من قلبٍ مفعمٍ بالشوق والوله:

"رفقاً بمن رامَ الوصال عُد أيها الظل الندي

عُد يا ربيع العمر من سكّة السفر الطويل

بَلِّل يباسَ الشوق، غادرْ محطات الرحيل

جمرُ المسافات القصيّة حارقٌ،

والليل حين يطبق بأهداب الدُّجى،

ويكحّل الحزنُ رموشَ الأمنيات

قل لى بربك:

كيف أمضي في هذا الظلام؟".

***

لقد جاء "منصور" إلى الدنيا على صهوة جياد عرجاء، ضارباً أوتاده بين تيهٍ وسراب، فقد ولدته أمه طفلاً منذوراً للشقاء، ولم يرمش جفن الكون لقدومه، ولم يحفل به أحد، إذ كان الجميع سادرين في محنتهم، وكان الظلام يغسل وجه الأرض بسوادٍ حالكٍ، وكان الحزن يتمدد فوق هاتيك الربوع حين أطلق صرخته الأولى معلناً حضوره المتعثِّر.

كل شيء كان متشحاً بالسواد يومَ أطل برأسه المستدير وعينيه الغائرتين، فلماذا يندب حظه؟

بينما كان يقلِّب أوراق حياته البائسة ويتصفحها، كان الألم يحفر بأظافره الحادة ويغوص عميقاً في دواخله فيُحْدث فيها خدوشاً مؤذية.

تأوّه وهو ينظر بعيداً في صفحة الأفق الموشّح بالبياض، فطالعته صورتها المثبتة على الأفق وهي تبتسم له في صمتٍ مهيب.

كان يكفيه أن تتقافز صورتها كالموج على شواطئ ذاكرته لِيُحِسّ بوجوده، فقرر أن ينبذ حزنه ويلملم شظايا نفسه، فأطال النظر إلى صفحة الأفق حيث ترتسم صورتها البهية وتتضافر عناصر الطبيعة لتحلِّق به على أجنحة النوارس المرتحلة إلى جزرٍ يتيه فيها الأسى ويتلاشى الحزن تحت غيوم تفيض جمالاً وروعة:

نثيث المطر وأقواس قزح، حفيف الأشجار وشقشقة عصافير البلوم، هفهفة النسيم الهادئ، وتقاطيع وجهها المسربل بالحزن الشفيف...

حين ترنّ أجراس الحنين في أذنيه يبدو كأنه يسلك طريقاً سرمديةً يجهل مخاطرها، فيحس بالتيه والضياع والأسى.

هنالك تطل "زهرة" كقبسٍ من أمل يجدد في نفسه روحَ البقاء، والرغبة في المضي قُدماً رغم وعورة الطريق وخطورة المسالك.

هكذا تدنو منه برهةً، ثم تغادر تاركةً خلفها حزناً يجثم فوق صدره.

لَمْ تَلُحْ تلك الصبيّة يوماً في أُفق حياته كأنثى يشتهيها، بل تجسدت فيها المعاني والأحلام التي كانت ترفّ في عينيه كعصافير الخريف النشوانة بالفرح والحبور، فـ"زهرة" هي "عونا"، وهي الزمن الجميل.. هي ذكريات الطفولة، ومراتع الصبا، ولحظات النشوة والانبهار.

"تُرى، أيّ مصير قد حلّ بها؟"، تساءل وهو يلوك لبانَ الحسرة والأسى.

إنها هناك تكابد مثله الجور والضنك وعذابات الأيام المرهقة، لكنها ستصمد حتى النهاية.

نعم، ستصمد، وستجعل نصب عينيها ذلك الوعدَ الجميل، وتلك المقولة المأثورة التي خصّها بها ذات يوم بعيد:

"لقد تعلّمنا من أشجار (العركوكباي) أن نقف على الجرح ونخوض هيب المسافات بصبرٍ وجلد".

اختفى "عتيل" عن أنظارها، ولم يتطوع أحد لإرشادها، فقد كان الخوف يسري في النفوس، خاصةً بعد العملية الفدائية التي نفذها "ود كدان" وسط المدينة ضد أحد أشرس جنرالات العدو.

نظر إليها صاحب الصالون الأنيق شزراً حين سألته عن "عتيل"، أما آمنة بائعة الأواني المترلية فقد حدجتها بنظرةٍ قاسية كأنما تأمرها بمغادرة المكان.

كان الرّعب يُسدل غلالة كالحة ارتسمت فوق الوجوه.

جلست تحت المبنى العتيق تتساءل بحيرة عمّا يحدث.

توهجت السماء بطلائع الشمس الزاحفة ببطءٍ من خلف التلال البعيدة.

طلوع الشمس كان يعزز الأمان في نفسها ويبعث الأمل فيها، أما الظلام فهو عدوها المقيت، ففيه طرقَ البرابرةُ القساةُ بابَ منزلها ذات ليلةٍ مظلمة ليسرقوا منها والدها الحبيب.

ابتسمت لطلوع الشمس كما يبتسم التائه في الصحراء عندما تلوح لناظريه خضرةُ الواحات.

نهضت من مكانها وسارت على غير هدى من دون أن تحدد وجهةً للمسير.

كانت تتلفّت وتُرهف السمع وتتلصص بعينيها على الناس تماماً كما يفعل البدوي حين يدخل المدينةَ للمرة الأولى.

كادت تفقد الأمل، فقد كان كل شيء هناك يسير على نحوٍ اعتيادي، ولم ترَ أيَّ مظهر من مظاهر التململ أو التمرد كما كانت تتوقّع وتتمنى.

لكن فجأة، انقلبت الأمور رأساً على عقب، فانتشرت الفوضى في جميع أرجاء المدينة.. من "بلوك أسمرة" إلى قمة "إيتعبر" مروراً بقُبة "سيدي بكري" حتى "وادي دعاري"!

- ما الذى يحدث؟

تساءلت من دون أن يجيبها أحد، فالكل كانوا يتساءلون مثلها بفضولٍ عمّا يجري.

ركضتْ مثلهم باتجاه محطة البترول (أجيب)، ثم عرّجت جنوباً إلى مقابر "الطليان".

تحوّل السيل البشري المتدفق إلى الميدان المحاط بأشجار البان، فزحفت معهم إلى هناك.

اصطف الجميع وغلالةٌ من الحزن تسربل وجوههم.

كان الضابط القميء ذو الوجه المنقور بالجدري يصرُخ ويندد باللغة التي يَبغضها أولئك المتجمهرون حول الميدان:

- هذا الخائن ظل يدعم "الشفتة" المخرّبين ويرسل لهم الطعام مع ابنته الصغيرة، وقد ظن أنه سيفلت من قبضتنا!

لم يمنعها الإجهاد والتعب من أن تزاحم الناس وتجد لنفسها مكاناً في الصفوف الأمامية قريباً من المقصلة التي كانت تتدلى منها جثةُ مَن زعم ذلك الوغد أنه مخرِّب.

"زهرة" التي تعوّدت على جلافة الحياة وقسوة الأقدار التي حرمتها في غمضة عين كل أفراد أسرتها وأهل قريتها الحبيبة، لم يمر عليها ذلك الحدث مروراً عابراً، فقد ارتسمت صورة ذلك الرجل المصلوب في عينيها وانطبعت في قلبها جُرحاً ظل ينزف وينزف، خاصة بعد أن

علمتْ أن ذلك المصلوب أمامها ليس سوى "عتيل" الذي تكنّ له الود، وتبحث عنه كما يبحث الظمآن في عمق الصحراء عن قطرةِ ماء.

إنه مسمار آخر، لكنه ليس الأخير يُدَق في نعش أحلامها التي ما إن تنبت وتتفتح كأزهار الياسمين حتى يسلِّط الله عليها آفاتٍ تجتثها من منابتها.

هكذا تنطلق سهامُ الغدر دوماً لتشُكّ نِصَالَها كلما نثر الزمان زنابقَ في درب "زهرة"!

غاصت مرة أخرى في يَمّ أحزانها وعادت بها الذكرى إلى الماضى البعيد.. إلى ذلك اليوم الفاصل في حياتها حين قررت أن تلتحق بالثورة، ودفنت وجهها في صدر أمها وهي تقاوم رغبة للإفصاح عن حلمٍ ظل يراود مخيلتها، من دون أن تؤذي أمها المريضة التى تجد فيها آخرَ خيط يشدها للبقاء على قيد الحياة.

هكذا يعود طيف أمها ويتراقص في بؤبؤ عينيها كلما رمى الدهر شوكاً في طريقها.

– ما بال القمر يبدو حزيناً، شاحباً هكذا!

ما انفك الصوت العذب الجميل يترجرج في أذنيها لينتشلها من وهدة الخوف والإحساس بالضياع كما ينتشل الليلُ خيوطه المظلمة عند انبلاج الفجر.

openlibrary.com

لم تتردد هذه المرّة في الإفصاح عن رغبةٍ كبرت في دواخلها وقد حان أوان المخاض:

– سأنضم إلى جيش التحرير لأناضل ضد هذا العدو الذي يجثم فوق صدورنا!

رددت بصوتٍ مسموع، ثم أفاقت من قفوتها لتجد نفسها وسط الجموع الغاضبة تسير ببطءٍ مثل حمامة مكسورة الجناحين.

لقد سُدّت أمامها كل المنافذ، واستحال الكون كله كثقب إبرة أو كأسوار مشيّدة بحجارةٍ صلدة تَحُول بينها وبين العيش في وطنٍ تحبه حتى النخاع.

"لماذا تستحيل الأوطان مثل السراب، نلهث خلفه فيبتعد عنّا خطواتٍ كلما اقتربنا خطوة منه؟!"، تساءلت بحرقةِ مَن تحطمت أحلامها وتلاشت أمنياتها العزيزة.

– ولكن هل انتهى كل شيء؟

عادت إلى تساؤلاتها.

– وهل تفيد الحسرةُ والندمُ هذا الوطنَ المكبّلَ بالقيود؟

– علينا أن نفعل شيئاً، بل يجب أن نفعل كل ما في وسعنا قبل أن يبتلعنا هذا الوحش الكاسر.

لملمت أشلاءها وبآخر نفَس من قواها الخائرة مشت تترنح في الطرقات الكئيبة وسط المدينة.

ظلت المدينة التي تتكئ على حاضرٍ شاحب ومستقبل مجهول، غارقةً في صمتها. ذلك الصمت الذي يعقب الخيبة والإحساس بالضياع والتلاشي.

كآبةٌ لم تشهدها تلك البقعة التي جُبل أهلها على الفرح والمسرات، فكل شيء فيها اتّشح بحزنٍ طفحَ به الكيل حتى فاض.

صمتٌ لم تجرح سكونَهُ سوى تراتيل الدراويش وأصواتهم التي تعلو وتخفت وتتمَوْسَق بألحانٍ فيها من الشجن ما يحاكي بؤسهم وأحزانهم التي يفرّون منها إلى حضرة المصطفى:

"صلّوا عليه، صلّوا عليه..

صلّوا على النبي، صلّوا عليه".

أصواتهم تعلو وتجهر بالنداء الذي يخرق أحشاء الليل.

أرخت أذنيها، ثم مشت باتّئاد مصغيةً إلى الأصوات التي كانت تقودها إلى قُبة "سيدى بكري".

هناك وجدت عالماً آخر غير الذي تعرفه، فمشهد زوار الضريح يوحي لها وكأن الساعة قد أزفت:

طبول تعزفها أيادٍ معروقة، حناجر مبحوحة تنبعث منها أصوات تبدو كاستغاثات من يحاصرهم الموت، نساءٌ انطبعت على خدودهن آثار دموع ذرفنَها بسخاءٍ وحُرقة، وأُخريات نذرنَ أنفسهنّ لخدمة

الزوار.. وعلى يسار الضريح ليس بعيداً عن القُبة، رجالٌ انتصبوا واقفين كأشجار البان يُتَمتمون بالأدعية وقد اكتست وجوههم غبرة وتبدّلت سحناهم.

خطَتْ "زهرة" باتجاه زمرة من النساء اصطففن خلف القُبة وعناقيد الشوق تحف بهنّ وهُنّ ينتظرنّ دورهُنّ لتقديم قرابينهنّ إلى صاحب الضريح الراقد هنا منذ زمن بعيد!

كان شيخ الدراويش يجول بين الناس ويحثهم على التهليل والتكبير ويدور كجَمَل الساقية حول القبة، ثم يعرِّج إلى الحجر الذى يضع الناس تحته القرابين، وبحركة رشيقة وخاطفة يضع يده على ما تحته من مال، ثم يدسّه في جيب جُبته الواسعة ثم يعود مرةً أُخرى لمعاودة حركاته البهلوانية!

في غمرة الدهشة والذهول نسيت "زهرة" أن تخلع حذاءها، فمشت بضع خطوات لم تَدْرِ بعدها ما حدث لها، فقد غابت عن الوعي لمدة من الزمن، لكنها أدركت حين أفاقت من غيبوبتها إنها قد وقعت في المحظور، بل استشعرت فداحة الخطب من حديث المرأة التي كانت تعتني بها وتضع قماشاً مبلَّلاً بالماء البارد فوق الدمامل المحتقنة التي خلَّفَها على ظهرها كُرباجُ السادن الذي أغضبه تدنيس الضريح بالحذاء.

Obeikandi.com

"ألا تخشين غضبَ الأولياء؟"، قالت المرأة وهي تمرر يدها برفق على آثار الضربة، ثم أضافت: "لا تغضبي يا بنيتي، بل احمدي الله أن حُرّاس الضريح قد خلّصوكِ من الإثم، فلا تنسي بعد اليوم أن تخلعي حذاءك وتتأدبي في حضرة السادة!".

"ليتهم يخلّصوننا مما نحن فيه"، همست "زهرة" لنفسها، ثم افترشت الأرض ونامت كما لم تنم من قبل.

***

ستتوغل تلك الصبية البائسة في غابة التيه وتمخر عبابَ أيام كالحة.

ستصطلي بنار الفقد والحرمان، وتعُبّ من دنان العشق لحبيب اقتفى أثر الموت حتى الوصول.

سيطول بها السفر، وتمتد نحوها أذرع المنافي وتتلقفها وترمي بها بعيداً بعيداً، هناك في قاع الأرض، قاب قوسين أو أدنى من "نهاية الكون" كما يبدو لها.

لقد ضنَّت عليها الأيام بلحظات هانئة تستريح فيها من وعثاء السفر وعناء الترحال، فهي لا تعرف كيف تستجير من عنت الحياة وقسوتها؛ أبالحنين إلى ذلك الماضي، أم بالنسيان؟

كيف تغسل قلبها من شوائب الحزن العالقه فيه؟

obeikandl.com

تشيح ببصرها حين تقع عيناها على موقع منفاها الجديد في ركنٍ قصي على خريطة العالم.

لا تصدّق أن الأقدار رمت بها هناك بالقرب من (waga-waga)

تسأل صديقتها الصومالية والدهشة تفيض من عينيها:

- أحقاً نحن نعيش هنا؟

تنظر "لؤلؤة" إلى يدها المثبتة في أسفل الخريطة، ثم تجيبها من دون اكتراث:

- نعم.

- لم نكن نظن أن لهذا المكان وجوداً في الخريطة، فقد كنا نستخدم عبارة "الواق واق" كصيغة للمبالغة في التعبير عن البُعد والاغتراب.

- أكثر ما يقلقني يا "زهرة" هو هذه السماء المثقوبة.

تُسمّمها رفيقتها بجرعةٍ إضافية من الرعب والخوف.

- ألم تسمعي بثقب الأوزون؟

تسترسل "لؤلؤة" التي لكثر ما تكالبت عليها المحن، ما عادت تعشق من الألوان سوى الأسود القاتم.

- كثيرة هي الأمراض التي يسببها هذا الثُّقب اللعين، أقلّها خطورةً مرض السرطان.

obeikandi.com

- ولكن...

تتحفّز "لؤلؤة" لتوجه سؤالاً كالنصل الحاد، وإن بدت فيه أكثر اقتراباً من جوهر الحقيقة المُرّة:

- أيّهما أفضل لنا؛ أن نعيش هنا في قعر الدنيا تحت شمس تشعّ وبالاً، أم في تلك الأوطان التي لا تجود علينا سوى بالموت المجاني؟

- إذن، لقد كفرتِ بالأوطان يا "لؤلؤه"!

- وما مفهوم الوطن عندك يا "زهرة"؟

- ....

- الوطن يا"زهرة" هو المكان الذي يمنحنا الدفء، وهو المكان الذي يشعر فيه الإنسان بآدميته، فهل وجدنا ذلك في أوطاننا؟ لقد عشتُ في "مقديشو" نصفَ عمري أو أكثر، أترقّب بقلبٍ واجف رصاصةً تنهي حياتي! لقد وجدنا هنا ما لم نجده هناك، فلماذاً نتشبث بأوطانٍ تضنّ علينا بأبسط حقوق الإنسان؟

لم تجد "زهرة" ما تقوله، فبقدر ما أفحمها ذلك المنطق، وجدتْ صعوبةً في استيعاب فكرة أن تُلغى مفردة "الوطن" من قاموس قناعاتها الراسخة في ذهنها منذ الأزل.

هكذا، حرّك ذلك الحديث الشجي في نفسها رواكد لذكريات آسنة بالبؤس والشجن، فنهضت بخفة وخطت بضع خطوات، ثم دلفت إلى غرفتها وصفقت خلفها الباب.

- عبيطة يا "زهرة".. والله عبيطة، تريدين أن ندفن رؤوسنا في الرمال ونسمّي الأشياء بغير أسمائها؟!

بقدر ما أنِسَت "زهرة" في صديقتها الطِّيْبَةَ والوفاء، كانت تجد فيها الكثير من الرعونة التي لا تناسب عمرها، إذ لم تكن "لؤلؤة" قد تجاوزت العقد الثاني بعد. لقد عركتها الحياة.. فحين تتحدث عن دورها في الحرب التي أكلت الأخضر واليابس في "مقديشو" تتصور أنك أمام أكبر جنرالات الحروب وأبطال القصص البوليسية. فقد أذهلت "زهرة" بحكاياتٍ مدهشة تبدو لكل من يسمعها كالأساطير.

حدّثتها ذات ليلة ممطرة تَساقط فيها الثلج من سماء "ملبورن" كما لم يتساقط من قبل، عن شقيقها الذي قَتلَ شيخَهُ الذي حفظَ القرآن على يده بدمٍ بارد، امتثالاً لأمر القبيلة ليس إلا!

"أنا أيضاً تعلمتُ القرآن على يده"، تقول "لؤلؤهة" والدموع تسيل على خديها ثم تواصل حديثها: "كان الشيخ (ورسمه) رجلاً تقيّاً وطيباً، لكنه أمر القبيلة يا أختي، ومن لا يلبي نداء القبيلة عندنا يظل منبوذاً".

"نحن أيضاً تعاطينا هذا المسخَ المشين"، تمتمت "زهرة" في سرها بينما ظلت تتابع حديث صديقتها بإصغاءٍ ودهشة.

- رجوتُه يومذاك أن ينأى بنفسه عن فعل حماقة كهذه تُغضب الله، لكنه فعلها.. نعم فعلَها والقلب ينزف دماً!

obeikandi.com

كان المطر يرسل سياطاً تلسع النافذة، و"زهرة" التي تعودت أن تبتسم للحياة حتى في أكثر لحظات التعثر والضياع، بدأت تستكين لليأس وتستسلم لجحافل أحزانها التي لا تأتي إلا رديفاً لأحزان تسبقها.

"ما أجمل هذا الصباح"، هتفت "زهرة" صبيحةَ اليوم التالي وهي تعبئ رئتيها أكسجيناً نقياً وتنظر بإعجاب إلى الشمس الساطعة في أُفقٍ له لون المُقَل، ثم تساءلت وقد استبدّ بها الشوق:

– ما بال الوطن يغدو ساحراً جميلاً في أعيننا كلما ضاقت به الدوائر واشتدت عليه الكُرب؟

آنَ تغادر "زهرة" نومها المتقطع، ترجو الصباح أن يأخذها إلى فرحٍ تطلّ به على أريكة الوطن المزنّر بالعناقيد وقطوف الصندل.

تشد وترَ القوس، وتتوغل في اجترار أحلام مراوغة تغازل عينيها، ثم تعبر مثل سحابة عابثة.

قبل أن تنهض من فِراشها تَناهى إلى أذنيها صوتٌ شجيّ كان مصدره الشقة المجاورة التي يسكنها شاب فلسطيني كان قد وصل إلى أستراليا قبل أيام معبأً في قوارب الموت القادمة من أندونيسيا..

كان يردد بحزنٍ شفيف مقطعاً من إحدى أغنيات محمد عبد الوهاب:

"أخي جاوز الظالمون المدى.. فحقّ الجهاد وحقّ الفدى".

هي أيضاً، تجاوزَ حزنُها المدى، لكنها تكابد عناءً صخرياً لتدفنه في رمال النسيان، ولكن كيف تنسى الوطن المنغرس في أوردتها عشقاً وهياماً؟ بل، كيف تنسى فارس أحلامها الذي غاب عن عينيها ولم يغب عن تسرّبه الدائم في دمائها؟

نهضت من فراشها منكسرة حزينة كشاطئ انحسر الماء عنه.

كانت "لؤلؤة" إذ ذاك تهذي في غرفتها بأحلامٍ وكوابيس مرعبة، وكان العرَق يتصبب من جبينها رغم برودة الطقس.

انثنت "زهرة"، ثم دنت من وجهها، وبحنوٍ ورفق وضعت يدها على خدها تحثها على النهوض.

نهضت "لؤلؤة" مذعورة، ثم انخرطت في بكاءٍ أشبه بالعويل.

كانت الغرفة مظلمة إلا من ضوء خافت يتسرّب عبر ذؤابة شعلة تتراقص في وجه "لؤلؤة الشاحب الحزين.

رغم التشوهات التي كست دواخلها وأكسبتها رعونة وغلظة منفّرة، إلا أن جمالها الأخّاذ كان يملأ فضاء الحدقة.

لم تسألها "زهرة" عن سر بكائها، فهي تعلم أن أيامها كلها ليس فيها سوى ما يبعث على البكاء، ثم إنها كانت في ذلك اليوم مهمومة بأخبار الثوّار الذين كانوا يزحفون نحو "أسمرة".

– يجب أن نصافح الحياة وأن نتحدّى.

obeikandi.com

بهذه العباره المقتضبة واست "زهرة" صديقتها، ثم انتحت ركناً ووهبت أُذنيها إلى المذياع الذي كان يدغدغ حواسها باقتراب ساعة الحسم والانتصار.

جعلت تتنقل من محطةٍ إذاعية إلى أخرى ودموعُ الفرح تفيض من عينيها: صوت العرب، بي بي سي، مونتي كارلو...

وجدت نفسها كمن يسير على بحر لا يدري متى تصادفه اليابسة، فهي وإن كانت تؤمن بحتمية الانتصار وتثق في صلابة الثوار، إلا أنها كانت قد تعودت على الخيبات وأدمنت التعثر والفشل.

أخيراً، ثبّتت قرص المذياع على محطة "صوت الجماهير"، وجعلت تصغي لصوتٍ كان يصنع في دواخلها فرحاً ينسيها عذابات أيامها الكالحة.

كانت كلماته تترقرق في أذنيها كخرير نهرٍ يشق طريقه بين الوديان.

– من هنا، من "أسمرة"، حيث تشرق الشمس بعد طول غياب ويغرّد الفجر الجميل أنشودة الانتصار.

يصمت "عمّار" وتتحشرج في حنجرته الكلمات.

يتوقف البث هنيهات، فتتوقف شرايينها عن النبض.

يعود البث هادراً بالنشيد الوطني:

"لكي تحتل مكانها بين الأُمم

نسترخص أرواحنا من أجلها

لم نقل نعم ولم نركع، ولم تخمد

إرادة النضال

تعاهدنا أن تسمو أرتريا

أرتريا... أرتريا... أرتريا".

جحظت عيناها كأنها لا تصدّق ما تسمع، بل تكاثفت أمام ناظريها خطوطٌ متماوجة لصور ومشاهد متناقضة:

ملامح "منصور" المنثورة في محيط ذاكرتها وأطلال مخيلتها، أبوها الذي ما انفكت ذكراه تتمدد في أعماقها جرحاً لا يندمل، أمها وإخوتها الذين انزلقوا من بين يديها كفرحةٍ هاربة، رفاق طفولتها الذين ما برحوا يعبثون فوق أنقاض ذاكرتها، "عونا" التي تلاشت وصارت أثراً بعد عين.

سَرَتْ في أوصالها رعشة، واصطفّت في دواخلها طوابير العذابات التي تجرعت مراراتها منذ أن تمزّقَ الخيط الذي كان يربطها بالوطن.

لحظاتٌ من التبلُّد الحسّي غمرت أرجاء جسدها، وسرت فيه كما يسرى التيار في الأسلاك.

كيف تصدّق أن حلمها لم ينطفئ قبل أن يزهر؟

obeikandi.com

كم تلظّى في أعماقها ظمأ الشوق، وكم ظلت ترقب السُّحب الحُبلى بالوعد الجميل، غيمة تطارد غيمة.

رويداً رويداً بدأ المَسّ الكهربائي الذي شلّ حركتها يتسرّب عبر عينيها دموعاً بلّلت خديها، فانطلقت تجري وتقفز كالفرس الجموح.

"آن الأوان للمواكب الجنائزية الحزينة أن تغادر، ولمواسم الأفراح أن تزهر"، رددت في نفسها قبل أن تغادر منفاها البعيد.

وحين حلّقت بها الطائره في عُلوٍّ شاهق ولامست أجنحتها هامَ السُّحب، ارتعدت "زهرة" وللمرة الأولى منذ أن قذفت بها أمواج التيه في لُجج الضياع، ينتابها الخوف والفزع ويتحوّل زهدها في الحياة إلى رغبة وحرص لا نظير لهما.

إنه الأمل الذي لم تنطفئ جذوته في أعماقها يوماً، ومَن يزرع الأمل في دواخله لا يحصد سوى الفرح.

نعم، هو الأمل الذي ظلت تلوذ به كلما لوّنت آلام الغربة حياتها بقتامةٍ مُرّة.

يا لروعة "منصور" حين يزرع وردة في صحراء العدم ويصيح ملءَ شدقيه:

"الغد هو أجمل الأيام".

جيوش من الوساوس والمخاوف كانت تعتصر قلبها، خاصةً حين تواجه الطائرةُ المطباتِ الهوائية، فتئز أزيزاً تبدو خلاله كأنها ستنفجر.

obeikandl.com

لاذت "زهرة" بآياتٍ من القرآن الكريم، فشعرت بشيء من الطمأنينة.

فتحت دفتر مذكراتها وجعلت تمرر عينيها بين السطور، فوقع بصرها على أول خاطرة سجلتها وهي تغادر مُكْرَهةً حين قرر "هابيل" أن يتخلّص من شقيقه "قابيل" بالبندقية نفسها التي درّبه على استخدامها وتصويبها على صدر العدو!

"وداعاً أيها الوطن المكبّل بالقيود..

وداعاً أيها الحُب الخرافي،

فسوف تنأى خُطاي بعيداً عن ضفافك،

وسأغوص في أغوار مأساتي

وأمنحك حزناً لاحدود له

ثم أمضي مبحرةً في فضاءات الذكرى

والتفاصيل الحميمة..

فمَن غيرك أيها الوطن،

يغوص في دمي عشقاً وحباً وهياماً؟

مَن غير طيفك يوقظ أوتارَ حسي ودهشتي؟

مَن غيرك أيها الوطن؟".

"ماذا يفيد اجترار الأحزان وقد أشرقت الشمس؟"، تساءلت وقد تبددت أمواه العتمة التي كانت تمد أجنحة من الكآبة في دروبها الشائكة، وأشرق وجهها الذي خطّت عليه مواجع السنين خطوطاً غائرة.

هكذا، صارت تستعيد ألق الحياة وبريق الذكريات القديمة التي كانت تغزو مخيلتها أثناء الرحلة الطويلة من "ملبورن" إلى "أسمرة":

"عونا" المنتصبة فوق التلال بقامتها المشرئبّة وظلال أشجارها الوارفة، أسراب الطيور العابرة وهي ترفرف بأجنحة الفرح فوق المزرعة المتاخمة لِدَارِهم عند أطراف القرية، الغيوم التي تلهو وتزحف بكسل فوق الهضاب والقمم الشاهقة، قطرات المطر الناعم وهي تنقر برفقٍ على أعشاش الطين القديمة، ضياء الغروب الشاحب حين تلفظ الشمس أنفاسها، أمّها التي انطفأت مثل شمعةٍ ذابتْ في صمت وسكون....

ذكرياتٌ تطارد ذكريات، عبرتْ مسرعةً أمام عينيها كرمادٍ تذروه الرياح.

- السادة والسيدات المسافرين على متن الخطوط الـــ.........، يحييكم كابتن الطائرة وطاقم الرحلة......، ويهنئوكم على سلامة الوصول إلى مطار "أسمره"....

كان ذلك النداء هو الخيط الفاصل بين الحزن والفرح، وليس أمامها الآن سوى أن تستعير من حدائق الخيال ابتسامة مشرقة تَلقى بها الوطن الذي كثيراً ما توسّدته حُلماً ظل يعذِّب مخيلتها المجنّحة.

انسابت داخل المدينة كما ينساب الماء في النهر.

سارت في الطرقات مثل كائن غريب، تجوس بعينين فرحتين وتتفرّس في الوجوه لعلها تجد بينهم من تبحث عنه.

– لقد تحقق حلم العودة، فهل يتحقق حلم اللقاء؟

– أيكون "منصور" على قيد الحياة، أم إن الحرب اللعينة قد أخذته في ما أخذتْ؟

نبتت على شفتيها حقول من التساؤلات.

– لقد أصر على الموت هنا، ولم تُثنه كل النداءاتــ ولم تُغْرِه دعوات الأصدقاء الذين قدموا له تسهيلات الهجرة والاغتراب.

تراقصت أمام عينيها حروف الكلمات التي خطَّها في آخر رسالة تلقّتها منه حين كان يقاتل في جبهة "مصوع":

"ها أنَذا أنظر إلى البحر أمامي، فأتصور أنني سأضطر يوماً إلى الغوص فيه وعبوره سباحةً حتى أصل إلى شطآن أخرى بعيداً عن ضفاف الوطن..

هذا الوطن الذي كلما أوغلنا في حُبهِ، توغّل هو في الصدود!".

هزّها نبرتُه التشاؤمية التي لم تأنسها فيه من قبل.

رغم خلوّ المدن من مظاهر الحرب التي غيّرت ملامحها، إلا أن مشهد الثوار وهُم يتجولون بزيّهم العسكري وأحذيتهم البلاستيكية (الشِّده) كان يبعث في نفسها الزهو والفخر بالوطن المنتصِر بشموخ الرجال وكبرياء النساء.

ودّت لو تعانقهم فرداً، فرداً، لكنها اكتفت بالتأمل والإعجاب.

لم تتغير "أسمرة" كثيراً عمّا كانت عليه حين زارتها آخر مرة قبل عامين فقط من الطوفان الذي جرفها بعيداً عن الوطن.

لقد ظلت تفاصيل تلك المدينة قابعةً في قاع ذاكرتها، وقد آن لها أن تطفو إلى السطح: رائحة البخور والقهوة التي تعبق في الشوارع، وطعم "الكباتشينو" و"الماكياتو" الذي ظلت تتلذذ باستنشاق رائحته في غربتها ومنفاها كلما أمَضّها الشوق والحنين إلى الوطن.

كان ينتابها حنينٌ جارف وشوقٌ عارم حين يتغلغل ذلك الإحساس في داخلها، فتتساءل والحسرة تمزق أحشاءها:

– لقد رحل "الطليان" ولم يخلّفوا وراءهم سوى روائح "الكباتشينو" و"الماكياتو"، فماذا تُرى سيخلِّف هؤلاء "الرعاع" حين يرحلون، غير روائح الحريق والجثث المتعفنة؟

مشت على رصيف "كمشتات"[١٢] المكتظ بالناس الذين ارتسمت في وجوههم إشراقاتُ الفرح والسرور.

كان "إدريس" يصدح برائعة "كجراي":

"أغلى ما أملك يا قلبي مهراً لعيون الحرية

لبلادي في درب الأحرار تدك جدار الفاشية

ما عاد كفاحك يا وطني صفحات نضالٍ مطوية".

"ما زال هذا البلبل الشادي في عنفوان تألُّقِهِ"، حدّثت نفسها وقد قفزت إلى ذاكرتها تلك الأيام الكالحة، حين هبّت عواصف هوجاء واندفع إعصارٌ من غضبٍ لا يُبقي ولا يَذر، حتى بدأ الحلم بالعيش في الوطن يخبو ويذوب.

تلك أيام لا تذْكُرها إلا لتنساها، فحين أسدلت العتمة رداءً حالكَ السواد وتخضبت الأرض بالأحمر الغاني، بكت "حشنيت"[١٣] شهداءَها!

– كيف هبّ الإعصار يومَ ذاك ومَن الذي أشعل الحريق؟

كثيراً ما اهترأ السؤال على شفتيها من دون أن تعثر على الإجابة الشافية.

---

[12] شارع الحرية الآن.

[13] مدينة إريترية شهدت أول حرب أهلية شاملة.

obeikandi.com

حتى "منصور" الذي كانت تلوذ به لفكّ الطلاسم وحلّ المعضلات التي تستعصي عليها، لم يكن بالقدر الذى يؤهله لتفسير ما حدث.

فقط حاولَ أن يقنعها بضرورة إجراء "عملية جراحية" لتطهير الوطن من دنس الخونة، أو كما قال في رسالة جلبت لها حزناً كاسحاً:

"ستزلزل الأرض تحت أقدامهم، وسنطهِّر الوطن من دنس الخونة الذين تمادوا في إيذائنا وطعننا من الخلف!".

أوغرتْ تلك الكلمات صدرَها ساعتَذاك، وأضمرت حقداً ضد من نعتَهُم بـــ"الخونة".

لكنها الآن وقد تفتّحت مداركها وأصبحت تميِّز بين الأبيض والأسود، لم تعُد تغويها شعارات الساسة وخطاباتهم الممجوجة.

– ولكن، أين أنت يا "منصور"؟

تعود الأسئلة لتتوالد في مخيلتها ويستمر بحثها عنهُ من دون أن يتسلل اليأس إلى قلبها.

أيام مرّت، تلتها أيام وهي لا تملّ حياكة الأحلام الوردية وتطريز الأماني الجميلة ثوباً لزفافها المرتقَب.

كأنّ فارس أحلامها قد غادر ذات يوم في نزهةٍ قصيرة إلى جُزرٍ رومانسية، ظلت تترقّب مجيئه بلا كللٍ أو ملل، ولم تطرأ على بالها فرضية الاستشهاد، أو لعلها كانت تطرد هذه الفكرة وتستبعدها تشبّثاً بتلابيب الأمل وحلم اللقاء.

وهي إذ تنسى فلن تنسى ما قاله لها ذات وعد جميل:

opeikandi.com

"لقد افترقنا يا (زهرة) وتُهنا في مسارب الحياة الشائكة، لكننا حتماً سنعود ونلتقي في رحاب الوطن المحرَّر".

تلك الوعود المخملية والأماني السرمدية كانت تهشّ ذباب اليأس والضجر عنها، وتمدّها بطاقةٍ تغذّي شكيمتها وتقوِّيها كلما اتسع جدار الخوف في قلبها.

هكذا تمشي "زهرة" في الطرقات تبحث عن نصفها الثاني، تنظر في وجوه المارّة فتلمح "عريساً" يتأبط يد عروسه، فتدب الحسرة في قلبها وتلوذ بالصوت المغرِّد.

يستنفر الصوتُ الطَّروبُ حواسَّها المعطوبة ويعيدها إلى الماضي البعيد.

ما إن تسترجع ذلك الماضي التعيس حتى تستيقظ في ذاكرتها رائحة الدخان والدم المتخثر، فحين شحذ الرفاق سيوفَ البطش وسالت بِرَك الدماء وقرعَ الحزنُ طبولَهُ في أرجاء الوطن، انسل صوتُه وسط ذلك الموات، متدحرجاً من قاع الحزن، صارخاً في وجوه من عاثوا فساداً واستباحوا حُرمة الأوطان:

– كفو بقلّ لسعّر.. وزلام كفو تتكارى؟

"حقاً أيُها النورس الصدّاح، كيف يترل المطر وكيف يَنبت الزرع والأُم تبكي فلذات أكبادها المتحاربين وتصرخ كما الخنساء: قاتلة أنا

ومقتولة!"، تساءلت مستنكرةً، ثم صعّدت نظرَها في سماءٍ زرقاء مترامية الأطراف.

كانت زُرقة السماء تمتد في جميع الاتجاهات كدائرة تحيط بالأفق وتسوِّره.

وكانت "أسمرة" حينذاك تتزيّن لاستقبال أفواج من العشاق، جاءوا من كل صوب وحدب، جاءوا مهرولين وظمأُ الشوق بادٍ في وجوههم.

واصلت سيرها وكمشتات يقذف أفواجاً من البشر.

توقفت عند المنحنى المؤدي إلى "سينما كابيتول"، أحست بالجوع يقرص معدتها، انحنت يميناً واتجهت إلى "مقهى الشروق"، التهمت طبق الفول بنهمٍ ثم طلبت كوباً من الشاي.

الرشفة الأولى أعادت توازنها إليها، وأنعشت حواسها، فتوهجت دواخلها كحُمرة الأصائل.

أما الرشفة الثانية فقد قرعت حواسَّ الذاكرة وعادت بها إلى "ملبورن":

"لماذا غابت عن بالي كل هذه الأيام؟"، تساءلت وصورة البنت البهية تتماوج أمام عينيها.

– لقد قاسَمَتْني شقاءَ الغربة وعذاباتها، وعلّمتني كيف أسمو فوق الجراح.

شدها الشوقُ والعطف إلى تلك الشقية العنيدة، التي كثيراً ما انحازت إليها وأسبلت عليها جفون الرحمة، لأنها كما تصفها دائماً "نسخة كربونية" من شقيقتها الصغرى "رحمة" التي لم ترحمها نيرانُ الحقد الأعمى في ذلك اليوم المشؤوم.

– أخاف عليكِ من نفسك يا "لؤلؤة"!

حدثتها ذات يومٍ بحنان الأم وعطفها، وناشدتها أن تترفق بنفسها ولا تعبأ بطواحين الأحزان التي تدور حولها.

لكن "لؤلؤة" اكتفت بنظرة خاوية من أي معنى، كأنها تمد لسانها ساخرة كعادتها وتقول:

– ذهبتْ أيامُ العمر كله هباء، ولم يبق سوى الجرح، فما الذس تخافين علَيّ منه؟

وضعت يدها على خدها وانحنت على الطاولة تنظر إلى الخطوط المنقوشة بدقةٍ ومهارة على الغطاء الحريري المطرّز بألوانٍ زاهية.

كان المقهى مكتظاً بالشباب القادمين من السودان، وأولئك الذين تلقوا تعليمهم في سوريا وبعض الدول العربية.

كانوا يتحدثون بأصوات عالية تارةً، وفي أُخرى يتهامسون.

بدا أحدهم –واسمه "صلاح"– غاضباً، مغتاظاً، يلعن حظه العاثر، بينما كان زميلاه يحثّانه على الهدوء والتروّي.

obeikandi.com

– لقد جئنا بآمالٍ عريضة تحطمتْ هنا على صخرة الواقع المزري، كأن هذا الوطن ليس لنا، فماذا ننتظر؟

....

– تهميش اللغة العربية بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، فأنا كائن حي يتنفس ثقافة عربية، هل فهمتما؟

كان صلاح يصرخ غاضباً ويصر على الرحيل أو كما قال:

– أن أعيش هُناك لاجئاً مشرداً، أهون علَيّ من هذا الوضع المهين!

أزعجها ما سمعتْ، لكنها كانت منشغلة بنفسها عمّا سواها.

رفعت بصرها إلى أعلى، فاصطدمت عيناها بصورةٍ لفارس يمتطي صهوة حصانه ويحمل بيده اليُمنى بندقية قديمة من طراز "أبو عشره".

"ليتكَ كنتَ معنا اليوم، لتفرح مثلنا، وتحصد ثمار ما زرعْتَهُ بيدك الجريئة يا (عواتي)"، تمتمت همساً كأنها تخاطب شخصاً أمامها بلحمه ودمه!

وضعت يدها على الطاولة وهمّت بالنهوض.

اتسعت حدقتا عينيها حين وجدت نفسها أمام وجهٍ بدا مألوفاً، فعادت إلى مقعدها وجعلت تشحذ زناد الذاكرة.

تزاحمت في رأسها صور عديدة لرجال قابلتهم في حياتها، فاحتارت بين الصورة والأصل!

الصورة هي تلك التي تحوم في خيالها وتخدش غشاء الذاكرة، ثم تبدو كالزئبق الذي تظنه في قبضتها، لكنه سرعان ما يفلت من بين يديها ويقفز بعيداً عن مدار الذاكرة.

أما الأصل، فذاك الجالس أمامها بسحنةٍ بائسة، يحتسي القهوة بطريقة تبعث على الاشمئزاز والنفور، يحدِّق في الأشياء بذهول تتسع له حدقتا عينيه بشكلٍ مخيف وقد اختطّ الزمان في وجهه تجاعيد كادت تخفي ملامحه.

ولكي تكتمل الصورة البائسة لذلك الرجل الغريب الذى تظن بل تكاد تجزم أنها تعرفه، نظرت إلى أسفل الكرسي الذي يجلس عليه فرأت ما أحزنها.

"يا للمسكين! إنه أحد مَعُوقي جيش التحرير الذين تعج بهم المدينة!"، "لقد دفع شعبنا الثمن باهظاً كي تسطع الشمس في سمائه ويكتمل الشروق"، حدّثت نفسها والحزن يمزّق قلبها.

شحذت قواها الخائرة ونهضت بتثاقل.

خطواتها الواهنة كانت تشي بما يعتمل في نفسها من هموم.

تقدمت نحوه خطوه، خطوتين، ثم وقفت أمامه وغرزت عينيها في وجهه الطافح بالأسى والشجون.

تأمّلته ملياً ثم صرخت صرخة مدوّية ارتج لها المكان:

Obeikandl.com

"بهدوراااااي"!

بدا لها "بهدوراي" كالمارد أو العفريت الذي يأتِي بأشياء تخرق نواميس الطبيعة، كأن ينفذ من ثُقبٍ ضيِّق رغم ضخامة جسمه، أو أن تراه جالساً في أتونٍ ملتهب يتمطى ويبتسم كأنه يجلس على مقعد وثير!

– "بهدوراي"، أتعرف من أنا؟

تململ "بهدوراي" كأنه يحاول أن يتذكّر، فوضع إصبعه على رأسه ثم تحرك في مقعده، لكنه عاد مرة أخرى إلى شروده.

– أنا "زهرة" يا بهدوراي... "زهرة أرها" التي جئتَها برسالةٍ من "منصور" قبل عشرين سنة..

حين أتت على ذكر "منصور" أفاق "بهدوراي" من شروده واهتز جسده، ثم نظر إليها بدهشة:

– نعم.. أنا "زهرة" يا "بهدوراي"، ألا تذكرني؟

لزم "بهدوراي" الصمت، وظل واجماً، غارقاً في شروده!

انتبهت "زهرة" إلى قنينة دواء الاكتئاب الموضوعه أمامه على الطاولة، وإلى ملابسه المتسخة، ثم إلى قدميه المبتورتين، فبكت بكاءً مُرّاً.

obeikandi.com

"تباً لها... تباً لها... تباً لها"، ردّد "بهدوراي" وهو يفتح فمه بعد صمت طويل.

"من هي... حدثني يا (بهدوراي).. من هي؟"، سألته "زهرة" بفضول وخوف.

صمت "بهدوراي" برهةً، ثم انبرى يحكي والعبرة تكاد تخنقه:

– "دقي أمحري"، تلك البقعة العنيدة التي وقفتْ أمامنا عقَبةً كأداء وخطفت منا أعظم الرجال!

سحبت "زهرة" كرسياً وجلست أمامه بإصغاء.

شعر "بهدوراي" برغبةٍ في تفريغ شحنةٍ من الحزن الذي كان يسحق دواخله، فبدأ يتحدث عن تلك المعركة التي رصدت الكاميرا وقائعها في تسجيلٍ حيّ، فبكى كل مَن شاهدها على الشهداء الذين تساقطوا كأوراق الخريف.

– دخلنا المدينة في العاشرة صباحاً، وما كدنا ننظف التخوم من الألغام لنفتح الطريق لرفاقنا الذين سيدخلونها من الجهة الشرقية وفق الخطة الموضوعة، حتى صبّت السماء علينا وابلاً من الرصاص! لا أحد يدري من أيّ جُحرٍ خرجوا إلينا، فالمعلومات التي كانت بحوزتنا تشير

obeikandl.com

إلى هروبهم خارج المدينة بعد أن أخذوا معهم ما خفّ حمله... لقد حدثت في تلك المعركة أخطاء فادحة دفعنا ثمنها باهظاً.

صمت قليلاً ثم استدار في جلسته ليقابل "زهرة" وجهاً لوجه، ثم واصل حديثه:

– تصوري أن قائد فرقة المدرعات الذي جاء لمساندة كتيبتنا المحاصَرة، أمر بفتح النار علينا ظناً منه أننا جيش العدو!

رغم ما أصابه من عطب في الذاكرة، إلا أنه كان يتحدث عن تلك المعركة كما لو أن وقائعها تدور أمامه الآن.

لقد تبخرت من ذهنه تفاصيل كثيرة وأحداث مثيرة إلا "دقي أمحري" التي ترسّبت في ذاكرته واستقرت في زاوية من زواياها لتعذّب ما تبقّى من جسدٍ بَترت الحربُ الرعناءُ نصفه.

بدا "بهدوراي" كأنه ينفض عن كاهله حملاً ثقيلاً، ويزيح عن صدره كوابيسَ تجثم فوقه منذ زمن طويل.

لقد وجد في "زهرة" وهي تصغى إليه، مَخرجاً من أقبية الكبت المعتمة إلى براح البوح النقي.

هكذا جعل يطرد من صدره هواءً حارّاً ثم يواصل حديثه الشجب في سردٍ موجع لكنه ممتع!

obeikandl.com

– أول من سقط شهيداً كان ذلك البطل الجسور، الذي كان يشيع البهجة بيننا في الميدان، وقد كانت له عند كل حجر أو شجر، عند كل جبل أو سهل، قصة بطولية جديرة بأن تُروى. كان "الزبيدي" بلهجته السودانية وروحه الوثابة، ملْحَ نضالِنا وبلسمَ جراحنا. لقد عزّ علَيّ أن أحمله في خِرقةٍ بالية بعد أن انشطر جسده إلى نصفين. كنا نناديه "الزبيدى"، لأنه يشبه "الرشايدة" أو "الزبيدية" في لونه وشكله... وحده قائدُ كتيبتنا كان يلقّبه بــ"عنتر"، وقد كان ذلك بالفعل اسماً على مسمّى، إذ كان "الزبيدي" حاضراً بيننا بجسارته النادرة وبسالته الفريدة.

كادت "زهرة" تسأله عن "منصور"، لكنها أطبقت على فمها خشيةً أن تعصف بها لطمة موجعة تُنهي لذة الانتظار الذى استمرأت التقلُّبَ في أتونه!

أخذها الذاكرة إلى زمنٍ بعيد، فانتابها حزن عاصف.

حزنٌ تشكّله اختلاجات الحنين إلى ذلك الماضي الذي ودّت لو يعود بكل ما فيه من نزفٍ وشجون، فهي وإن لم تذق لماضيها طعماً لذيذاً، خاضته برفقةٍ مأمونة، ولا تدري كيف ستخوض من دونها ما تبقّى من رحلة العمر.

obeikandl.com

"منصور نوراي" ليس اسماً عابراً في حياتها، وقد ظلت ذكراه عصية على الامتزاج مع أيّ اسم آخر، حتى في الحلم، فكيف ستحتمل ألم الفراق؟

"لقد طغى عليه اللقب ولم يعد أحدٌ يذكر اسمه الحقيقي غيري، فقد كان قريباً مني كنبضي، أبثه همومي وأحزاني فأجد عنده الملاذ والبلسم، يجدني مغْتَمّاً حزيناً، فتكون حاله إذ ذاك كحالي غَمّاً أو حزناً"، عاد "بهدوراي" لحديثه الشجي، بينما ظلت "زهرة" جالسة بلا حراك، كلوحة مثبتة أمام رسّام يتأهب لوضع اللمسات الأخيره عليها.

- كان "عبدالله"، وهذا اسمه الحقيقي، يحلم برؤية البيت الذي أبصر فيه جدّهُ "قبيل"، النورَ في "عد حباب"، وكان يهلّل ويكبِّر حين يستمع للمُغني وهو يغازل تلك المدينة/ الحُلم: "لوهاته، كرن".. كان يتحدث عن "كرن" كما لو أنه عاش فيها ذات يوم ونهلَ من معينها، وكان يحلم أن يقضي ما تبقى من عمره فيها بعد أن تتحطم الأغلال التي كبّلت جيدَ الوطن.

يتوقف "بهدوراي" عن الكلام، ثم يطلق ضحكة تبدو كأنها خارجة من مغاوير مظلمة. ضحكة خالية إلا من حسرة كانت تستبيح دواخله وتستصرخ فيها أوجاعاً مكبوتة، ثم يعود إلى حديثه من جديد:

– كان "عبد الله" متيّماً أيضاً بالمدينة السودانية التي وُلد وترعرع فيها، فحين سألْتُه عنها ذات يوم، أطلق زفرةَ عاشقٍ ولهان ثم لخّص حبه لها في إيجاز رائع: "القضارف" مدينتي الآسرة، ولا أريد أن أتحدث عنها كثيراً حتى لا يُخال أنني لست منها!

كان "بهدوراي" الذي يعاني من اهتراء الذاكرة، مصاباً أيضاً بما يُعرف في علم النفس بمرض "الوفاء الكلْبي"، نسبةً للكلاب التي تميزت عن غيرها من المخلوقات في الوفاء المطلق.

لقد ظل "بهدوراي" أسيراً لماضيه، وفيّاً لرفاقه الذين استُشهدوا، وكان يتمنى دائماً لو أنه دُفن مثل أيٍّ منهم، في قبرٍ بلا شاهد!

وفيما كانت "زهرة" تنتظر على أحَرّ من الجمر، لحظةَ إطلاق رصاصة الرحمة عليها وإنهاء حالة الترقب التي تصطلي بنارها، كان "بهدوراي" يلوِّن فضاءها المتكدس بألوان الجراح، بمزيدٍ من الأحزان التي عمّقت فيها الإحساس باللوعة والشجن.

إنها تعلم أن مسارات حياتها الرتيبة لم تكن يوماً سالكة، فهي كالبحر الذي يغدر ولا يفي بوعده، بل يجرّ مَن يركبه في مسالك غير آمنة.

وهي تعلم أيضاً أن حياهَا كالدهاليز، تفضي إلى فواجع ومواجع، فلماذا تتجرد الآن من جرأهَا في اقتحام الصعاب؟

لماذا لا تُنهي هذا الانتظار المميت؟

جعلت تحدِّق بعمق في الكآبة التي ارتسمت على سحنة "بهدوراي" ووجهه، ثم سألته بصوت متهدجٍ بدا كصوت المحْتَضِر الذي يتشبث بالحياة لآخر نَفَس من أنفاسه:

– ماذا عن "منصور"، هل استُشهد أم.....؟

ارتسمت على ثغره ابتسامة خرساء، لم تفلح في إخفاء الحزن الراسخ في صدره، وجعل يتملّى الحزن الذابل في وجهها ليعود إلى هذيانه الغريب، فتركَتْهُ وانصرفت، وبقيةُ أمنيات في قلبها تلوذ خوفَ أن يَلحقها الأذى.

***

– أيّ سحر ينبجس من هذه المدينة؟

تساءلت وعيناها تجوسان شوارع "أسمرة" التي كان رذاذٌ متساقط يغسلها بصمت.

في طريقها إلى فندق "نيالا" حيث تقيم، كانت تقاوم إعصاراً من الحزن اجتاح قلبها كعاصفة مباغتة، فأخذت تتلهى بالنظر إلى الروابي التائهة في الغيم، وإلى القمم المتلفعة بالاخضرار، وإلى تلك التلال التي تلقي برؤوسها على سفوح الجبال.

.. كيف لا والأحباب يرحلون من دون وداع، والأماني تتبعثر تباعاً مثل ذرّات دقيق منثور بين حقول من الأشواك والألغام؟!

لقد قرأت مصيرها البائس في وجه "بهدوراي" وهي تتأمل الحزن القاحل في عينيه، فتمايلت عيدان الأسى لتخربش دواخلها وارتعش الحزن في قلبها وانتفض كطائر بلا أجنحة.

ولكن، ماذا يخيفها الآن وقد استمرأت عذابات الفقد؟

ألم تترك وراءها أكواماً من الأيام التي احترقت بنار الحرمان؟

بدأتْ أمطار الذكريات تهطل على رأسها، وأخذت التفاصيل الحزينة تعبث في مخيلتها من دون أن تكفّ عن الانهمار.

كان الليل يلتهم ما تبقّى من ضوء النهار، وكان الفضاء متْخَماً بنجومٍ حيرى شاردة، لا يقوى ضوؤها على طرد العتمة التي أسدلت خيمة سوداء تلفّعَ بها ذلك المساء الذي أُرغمت فيه على الرحيل.

obeikandi.com

لم يكن في الوقت متّسع لتحزيم أمتعتها، ولا حتى لاختيار المنفى الذى ستلوذ به أو تأوي إليه!

حشرَتْ نفسها أو حُشرت في سيّارة "الفورد" القديمة، التي انطلقت بها إلى قُطْرٍ شقيق، لم تُنْسِها حفاوةُ استقباله لها، ما ظلت تكابدُ من حزن وحرمان.

ما زالت تذكر ملامح السائق ذي الأوداج المنتفخة، الذي لم يكفّ عن الثرثرة على طول المسافة، من "أغردات" حتى الحدود السودانية!

ها هي ذي مشاهد رحلة المنفى الكئيبة وتفاصيلها، تغزو مخيلتها وتحوم أمام عينيها، مشهداً تلو آخر:

هزيم الرعد الداوي، قوس قُزح الذي كان يزيّن السماء بألوانه الزاهية، غزلان البرية الراكضة على حواف الطرقات الجبلية الوعرة، جماجم ضحايا حروب الإبادة المتناثرة على أطراف وادي "بركة"، رائحة روث المواشي التي تحملها النسائم التي تهبّ من الجنوب، القرى الموحشة التي تبدو كما لو أنها لم تُسْكَن قط...

احتشد الحزن فيها وهي تتابع سير الرحلة المرهقة وخيوط تفاصيلها التي كانت تنْسَلّ بدقةٍ من أغوارٍ سحيقة لذاكره تقاوم الاهتراء.

obeikandi.com

توقفت أمام الفندق ولظى الفجيعة ينداح فوق رأسها وهي تتأمل مشهداً يفرض سطوته وحضوره، ويحتل حيزاً في ذاكرتها، ولَكَم تمنت لو أنها أفلتت من جاذبية الأرض أو ابتلعها اليّم في خضَمّه الهائل قبل أن تكون شاهدةً عليه!

فحين لعلع الرصاص وطغى صوتُه على صوت "ماكينة" السيّارة القديمة، المحشوه كعلبة الكبريت بالنساء والأطفال، كاد نبضها يتوقف، واستسلمت لشبح الموت الذى ظل يلاحقها كظلّها في كل مكان.

وها هي ذي ملامح الرجل القميء تمر أمام عينيها، تماماً كما رأته في ذلك اليوم بسحنته الباهتة من دون أن تغيِّر منها دورة الأيام والسنين الطويلة شيئاً.

وها هو ذا صوته الأجش يخترق أذنيها وهو يصيح في وجهها بنبرةٍ ارتبطت في مخيلتها بالقمع والموت والتنكيل:

– " تطو بل"... أو توقف!

توقفت السيارة، وفتح السائق الباب وظل جالساً على مقعده ينتظر "الجرذ" الذي انسلّ من بين الصخور الحادة متجهاً صوبهم.

لم يكن في تلك الصحراء القاحلة ما يوحي بوجود وحوش بريّة، ناهيك عن بشر، فاستغربت "زهرة" حين انشقت الأرض لتخرج منها مجموعة من قُطّاع الطرق "العقامي" الذين نخر الجوعُ أحشاءهم، فعبروا الحدود لينهبوا ويقتلوا ويروِّعوا الأطفال والنساء.

لم تسمع وسط صراخ النساء وبكاء الأطفال، ما كان يردده قائدهم الأبرص المهتاج، وهو ينتزع أقراط الذهب "فاي أنِف" انتزاعاً من أُنوف النساء، غير مكترثٍ بالدماء التي تسيل منهنّ بغزارة!

ثم استأنفوا الرحيل و"زهرة" لا تكفّ عن البكاء وصوت الأبرص المهتاج يكاد يثقب أذنيها، وملامح وجهه القميء تحوم أمام عينيها كرصاصة تبحث عن هدف.

وتتهادى بهم السيارة القديمة، مخلِّفة وراءها الغبار والذكريات الأليمة.

ثم تلوح لهم في الأفق البعيد، جبالُ "توتيل " المشرئبة بأعناقها نحو السماء، والتي تبدو بقامتها المديدة من بعيد كأنها ترّحب بهم وتهشّ في وجوههم بأريحيةِ أهل ذلك البلد المعطاء.

obeikandi.com

لم يُسقط تقادُم السنين لمحةً واحدة من تفاصيل رحلة الوداع التي ظلت عالقة في ذهنها، فها هو ذا الصوت الشجي، المنبعث من مذياع السيارة القديمة، يهدهد أشواقها ولوعتها، ويسكِّن نزيفَ الجرح الكاسر في أعماقها.

وها هي ذي الكلمات تنساب في أذنيها رقيقة دافئة كهفهفة النسائم، فتتصور أنها هي التي كتبت حروفها وهي التي مَوْسَقتْ ألحانها الشجية:

"الغريب عن وطنو مهما طال غيابو

مصيرو يرجع تاني لأهلو وصحابو..

ينسى آلامو وشجونو

ينسى حرمانو وعذابو".

"يا لروعة ذلك البلد، ويا لطيبة إنسانه الجميل"، تردّد بصوتٍ مسموع، ثم تعود لتقطِّب جبينها حين تتذكر معاناتها مع رجال الأمن الذين حاولوا التحرش بها وإنزالها من الباص المتجه إلى العاصمة في نقطةٍ نائية في الخلاء البعيد!

"إنها على كل حال أخلاقياتُ عددمن الذين انسلخوا عن الموروثات وتجردوا من القيم النبيلة"، تُحدّث نفسها كأنها تروِّض

عواطفها كي لا يتسرّب الحقد الأسود ليلوث مساحات الود الذي تكنّه لأولئك الناس الذين خَصّوها بحضنٍ دافئ وغمروها بمشاعر طيبة.

ويستمر نهر الذكريات في الانسياب، ويتدفق الطيف الجميل، فتلمح وجه صديقتها "السودانية" التي ذرفت لفراقها سيلاً من الدموع الحارقة.

ثُم يرتطم صوت والدها الجهوري بأذنيها، دافئاً رقيقاً:

– يا "زهرة"، أنا شايفك زي "السُّرَّة".. بتي دي، عشان كده ما حَ سيبك تسافري لبلد الخواجات البعيد داك.

– معليش يا عم "الجاك"، إن شاء الله الغربة ما تطول ونرجع قريب لبلدنا.

ترُدّ دعوته بلطفٍ وامتنان، لكنه يلحّ عليها بمشاعر أبوية صادقة:

– "علَيَّ الطلاق" ما تسافري، يا بنتي نحن أكثر من أهل، والحدود الجغرافية دى حاجة وهمية وضعها الاستعمار.

يصر عليها أن تعْدِل عن فكرة الرحيل، ثُم يحدثها عن "سرور" الذى دُفن في "أسمرة" التي كان يعشقها حدَّ الجنون.

هكذا تتوغل في اجترار الذكرى، فيستيقظ في أعماقها حزنٌ قديم.

لقد هشّمت مطرقةُ الزمن أضلاعها، لكنها لم تمسّ مستودع الذكريات المُرة التي لا تبارح مخيلتها إلا لتعود أشّد وخزاً وإيلاماً!

كيف تروِّض تباريح مأساتها، وكيف تضمِّد جُرح الذاكرة؟!

اقتربت من الفندق وذاكرتُها ما برحتْ تترف صور الحكايات القاسية.

وقفت أمام موظف الاستقبال ونقَدَتْهُ بضع "نقفات"[14]، ثم حزّمت حقيبتها وانطلقت لا تلوي على شيء.

– كيف ستجد قريتها التي أُنتزعت منها كما يُنتَزع الظُّفر من اللّحم؟

– كيف ستكون لحظاتُ اللقاء بعد كل هذه السنوات الطويلة؟

– كيف وكيف وكيف.....؟

حاصرتها تساؤلاتٍ مُرّة انهالت عليها كما ينهمر المطر بسخاء في ذلك الصباح الأسمراوي البارد.

لقد مضت على مأساتها سنوات طويلة، وما زال الجرح غائراً تَنْكَؤُه الذكريات المؤلمة.

---

[14] اسم العملة الإريترية ومفردها نقفه.

أخذ الباص يتلوّى بهم في الطريق الوعرة، التي لا تفصلها عن الهاوية العميقة سوى بضع سنتيمترات لو أخطأ السائق في تقديرها فعلى الدنيا السلام!

عمّق الوجومُ الذي ساد أجواءَ الرحلة، مشاعرَ الخوف في نفسها، فتساءلت:

– ماذا لو انحدرت بنا الحافلة في هذه الهوة السحيقة؟

التفتت إلى التي كانت تجلس جوارَها في المقعد الأمامي وجاذبتها أطرافَ الحديث علّها تطرد كوابيس الرُّعب التي ملأت قلبها.

– لقد تعوّدت "لبي تقراي" أن تغدر بالناس وتقتل أكبر عدد منهم في كل عام.

حدّثتها المرأة وجعلت تعدّ لها أقاربها ومعارفها الذين فقدتهم في تلك الطريق الخطرة، التي يسمّونها "لبي تقراي"، ثم أخذت تكيل اللوم على الحكومة التي انشغلت بتشييد السجون وبيوت الأشباح عِوض أن تدفع باتجاه البناء والتعمير.

– لقد تمنينا لهذا الوطن أن يعيش خارج حُمّى الكراهية والبغضاء، لكنّ هؤلاء المتغطرسين عادوا إلى زرع بذور الفتنة إشباعاً لرغباتهم المريضة.

ودّت "زهرة" لو تُصّم أذنيها كي لا تسمع مثل هذا الحديث، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يكبح جماح امرأة أسرجت خيول الحزن والآهات لفقدِ اثنين من فلذات أكبادها، استُشهدا في حرب التحرير، وثالثٍ امتهن الصحافة وعشق الكلمة الحرة النزيهة، فغيّبهُ الظلاميون في أقبية السجون المظلمة!

لاذت بصحيفة كانت في يدها، ودسّت وجهها بين صفحاتها.

– مَن الذي انتزع الألفة والمودة مِن هذا الوطن؟

– مَن الذى سطا على مكتسباتنا وحريّتنا؟

عادت المرأة المكلومة إلى حديثها الشجي وتساؤلاتها الطافحة بالأسى، بينما ظلّت "زهرة" غارقة حتى أذنيها في ضباب التيه والشرود.

"يا لَهُ من وطنٍ بات يطعن عُشّاقه ويزداد تلاشياً واضمحلالاً كلما فاخروا به كوطنٍ يشبه كل الأوطان"، قالت بحسرة، ثُم احتدّت نبرة صوتها وجعلت تصُبّ جام غضبها على "النظام" بلا تحفُّظ أو خوف.

– لقد رُزِئنا بمن دمروا وطناً كان ينتظر مَن يَبنيه، لا مَن يهدمه!

رويداً رويداً، بدأت الحافلة التي تتهادى بهم وسط الجبال الشاهقة، تتدحرج من الهضبة ببطءٍ شديد لتلامس الأرض المنبسطة، ثم لاحت

عبر الأفق البعيد، أضواءُ مدينة ناعسة بدت أسقُف بناياها مائلة مثل سلالم تتكئ على جدار.

هكذا تبدو "كرن" للناظرين إليها من جهة المرتفعات شرقاً.

نزول الحافلة بسلام من تلك الهضبة، وتجنُّبها الهوّة التي لا قرار لها، جعلَ المرأةَ الساخطة تكوِّر على شفتيها ابتسامةً تشفّ عن فرحة بالغة.

أما "زهرة" التي تعودت خلال غربتها التي طالت أن تذرف دمعتين كلما ناوشها الحنين إلى الوطن، فقد خمد هدير الخوف النابت في أعماقها وتلألأت في عينيها ومضاتٌ مُشرقة، فجعلت تنظر عبر النافذة وتتخيّل الحال التي ستجد عليها قريتها التي ظلّت تنسج لها من نَول الذاكرة ملامحَ طافحةً بالبهجة والإمتاع.

إنها تعرف جيداً أن الخيال لا يمكن أن يجسِّد شكلاً ليس له أساس في الواقع، لكنها تعودت أن تنشر ملاءات الفرح على حوافّ الشرفات الكئيبة، وترشّ أحلامها بأنداء الطمأنينة والتفاؤل.

هكذا جعلت ترسم لــ"عونا" الحبيبة صوراً "فَرايحيّة" مزركشة بألوان الجمال الساحر، وأخذت تطْلقها في فضاء المخيلة المجنحة.

وحين اقتربوا من المدينة، كانت جيوش الظلام قد تدافعت لتحاصر سيارتهم من كل الاتجاهات.

لم يكن في السماء قمرٌ، لكنّ النجوم كانت تومض كوهج البرق.

نظرت باتجاه "لالُمبا" الذي توشّى بنقابٍ حالك، ثم استدارت غرباً لتلمح خيطاً من أشعة نجوم ساهية تستحمّ في مياه "شفشفيت" اللازوردية.

استبدّت بها رغبة للمقارنة بين المدينة التي تنام ليلَها المحفوف بالضباب الكثيف، وتلك الحواضر البعيدة التي ترقص تحت أضواءٍ صاخبة، فانحازت مشاعرُها إلى "كرن" التي أضفت عليها العتمةُ مسحةَ جمال آسر!

عشرون عاماً قضتها في سفرٍ دائم وحزنٍ متواصل، لا يرافقها سوى ظلٍّ مُتعَب وذاكرةٍ لا تكفّ عن النزف.

كلما توغلت في جهةٍ ظنّت أنّ لها منفذاً يفضي بها إلى ظلّ تأوي إليه، دَلّتها الجهةُ إلى سفرٍ لا نهاية له.

ولكن، هل تذعن وتستسلم لعاتيات المحن وقسوة الحياة، أم تستلهم خُطاها من تلك الغيوم الحُبلى التي تتهادى في السماء بتؤدة، ثم تصل في نهاية المطاف إلى الجهة المقصودة لتفرِّغ حمولتها وتستريح؟

هكذا جعلت تنفض عن كاهلها غبارَ السفر الطويل وتستنشق ملءَ رئتيها أكسجين الوطن النقيّ.

لقد وصلت متأخرةً كظلٍّ انحدر حثيثاً نحو الأفول، لكنّ ذلك لم يكن يهمّها، فكثيراً ما تمنّت يوم انتابها الحنين إلى "عونا"، أن يمنحها الله لحظة واحدة قبل الموت لتكحِّل عينيها برؤية الوطن الحبيب.

وها هي ذي في قلب المدينة التي ظلت تروي لها بعطر الكتابة والدموع، أبجديةَ الحُب والشوق والحنين.

لقد تدفقت تحت الجسر مياهٌ كثيرة خلال الفترة التي غابت فيها عن الوطن، واقتلعت رياحُ التغيير كل منابت الأشياء إلا تلك المدينة التي احتفظت برونقها وبهائها، وظلّت تقاوم عسفَ الزمن وتراوغ الطعنات ومحاولات الاجتثاث، مثل فريسة تعلّمت من القنص المتكرر كيف تستشعر الخطر وتتخطّى المصائد.

قضت "زهرة" ليلتها تلك في نُزلٍ صغير جوار محطة الكهرباء القريبة من الميدان الذي يتوسط المدينة. الميدان نفسه الذي وجدت فيه قبل عشرين سنة، جُثةَ مَن كانت تبحث عنه معلّقةً على حبال المشنقو.

كأن الزمن قد توقّف عند تلك اللحظة الكئيبة من ماضٍ قميءٍ لا يريد أن يُلملم أحزانه ويغادر.

وكأن السنوات التي أمضتها بعيداً في دهاليز الملاجئ والمنافي محضُ حلمٍ عابر.

أرسلتْ نظراتٍ ذاهلة جالت بها في الميدان الفسيح، ثُم خطت بضعَ خطوات وتوقفت في المكان نفسه الذي نُصبت فيه المقصلة التي أُعدِم فيها "عتيل"، فانحدرت من عينيها الدموع.

النُّزل الذي كُتِبت على مدخله عبارة "فندق بركة"، لم يكن يرقى إلى مصاف الفنادق، لكنه على كل حال مكان آمن لامرأة وحيدة، ينوء كاهلها بأحمالٍ من الهموم والبلايا.

ظلّت ساهرة طوال الليل، تطرد النعاس بالتأمُّل والقراءة.

أعادت قراءة "الدون الهادئ" للمرة الثالثة من الغلاف إلى الغلاف، وانفعلت بكل جوارحها وتعاطفت مع بطل الرواية "غريغوري" الذي وجدت فيه نسخة مشابهة لـــ"منصور" الذي طواهُ الغياب.

فتحت دفتر مذكراتها، ثم أهرقت حبرَ أشواقها، حروفاً ندية لقريتها التي تتدثر نبضها وتملأ جوانحها:

"مثلما عشق غريغوري، الدون، ماءً وضفافاً، أحببتك يا (عونا) وأعلنت عشقي وانتمائي إليك".

كانت الغرفة أضيق من أن تخطو فيها أكثر من خطوتين متتابعتين، لكنها كانت أنيقة ونظيفة، تحتوي على سرير مفروش بملاءةٍ بيضاء

Obeikandi.com

ناصعة، وطاولة من خشب الأبنوس، ومرآة متوسطة الحجم عُلِّقت على الجدار، وحوض ماء قديم أكلَ الصدأ نصفه السفلي.

ربما كانت تلك أطولَ ليلةٍ مرّت بها، فقد ظلّت أبواب عينيها المتعبتين مفتوحةً حتى الصباح. وظلت هي تقتفي آثار مَن لم يتركوا خلفهم سوى أطياف ذكريات حزينة، وتتشمّم رائحتهم فرداً فرداً: جدّتها التي كانت تفكّ أسْرَ الأحلام الملفعة بالغموض، أبوها الذي ما رأته ينحني يوماً إلا ليطبع قُبلةً على جبينها، أمها التي تعودت أن ترسم على ثغرها ابتسامة ترطِّب وجهَ الوحشة ويرنّ صوتها في أذنيها حين تناديها بكل لغات الحب ومعانيها، إخوتها الصغار وفرحتهم بها حين تعود إليهم بعد طول غياب...

- هل ستجد "عونا" التي صنعَتْها ذاكرتُها وأشواقُها؟

بحزنٍ وأسى، تحسست في مخيلتها تضاريسَ قريتها التي ظلّت تلوذ بها كلما قرصها صقيعُ الغربة القاتلة.

هكذا ظلت تترقب بزوغ الفجر وتتقلّب على جمر الانتظار، حتى لاح في الأفق شعاعُ ضوء باهت، يعلن عن ميلاد يوم جديد.

استقبلت ذلك الصباح بابتسامةٍ نديّة وفرحه بالغة، تماماً كما يستقبل الأطفال أولَ خيط من خيوط فجر العيد، وقررت أن تقطع

المسافة بين "كرن" و"عونا" سيراً على قدميها كما كانت تفعل مع جدهّا التي كانت تبيع "البروش" والطواقي التي تصنعها من السعف في أسواق "كرن" مرة أو مرتين في الشهر، ثُم تعود إلى "عونا" محمّلة بالهدايا والملابس والطعام.

كانت تسير خلف جدهّا وتتوقف، ثُم تجلس على الأرض حين ينال التعب من قدميها الصغيرتين، فتتوقف الجده للحظاتٍ حتى تستعيد "زهرة" أنفاسها وقوهّا لتستأنفا المسير معاً.

الفرق أنها ستسير اليوم بمفردها، لكنها ستسلك الطريق نفسها التي كانت تسلكها مع جدهّا.

اعتراها صمت حزين وشوق دفين لـــ"عونا" التي تملأ ذاكرهّا.

الطريق إلى "عونا" موحشة ومقفرة كأنها تقود إلى الفراغ، و"زهرة" التي يناوش قلبَها شغفُ الوصول ولهفةُ العناق تغذّ السير ولا تلوي على شيء.

تحُثّ قدميها على الإسراع وتناجي "عونا" من عُمق حزنها:

"أنتِ حلمي وما تبقى لي من خيط الحياة".

تواصل تدحرجها في فراغات الطريق المحفوفة بالخضرة اليانعة من كل الجهات، ثم تغيب في خيالاتٍ مُغمضة وذكريات تُعرِّج بها إلى

obeikandl.com

حواضر بعيدة، ثم تعود بها إلى "عونا" وأهلها الذين اقتلعهم إعصار الغياب.

تبدو لها الأرض كأنها تتمدد، والمسافة تتضاعف، فينال التعب منها، فتركن إلى صخرة ناتئة على جنبات الطريق وتجلس ريثما تستجمع قواها الخائرة.

يتصادى صوت جدّها الحاني ويرتطم بأذنيها:

"هيّا بنا يا زهرتي الجميلة، هيّا انهضي لنصل قبل شروق الشمس!".

تنتفض مذعورة، ثم تنهض مثل شخص يُبالغ في الانضباط ويحرص دائماً على الوصول مُبكراً.

تهبّ نسمات رقيقة تتراقص عند أطراف القرية لتداعب الحياة في رفقٍ ولين.

وتهبّ مع النسمات، بعضُ الذكريات التي عاشتها "زهرة" هناك قبل أن ينسف الزمن القاسي أحلامها الجميلة.

يتراقص أمامها طيفُ صديقتها التي كانت تُسقِط بين كفّيها بعض أسرار الصبايا الساذجة، بينما كانت "زهرة" تجتهد قدر ما حباها الله من حكمةٍ أن ترفع عنها وعن أهلها في "عونا"، ندوبَ الأيام القاسية.

"أين أنتِ يا (سُعاد)؟"، تتساءل ثم تتوقف أمام الحجر الذى جلست فوقه "سُعاد" وهي ترتجف كريشة في مهب الريح، يوم وجدوا

"فرج نوراي"، شقيق "منصور"، جُثةً هامدة تحت الصخره المُشرفة على القرية التي شاع فيها الرّعب في ذلك اليوم المشؤوم.

وترنو من أعلى القمة التي تنام تحتها، قريتُها الحبيبة، منكسرةً حزينة وقد أطبق عليها البؤس. تنتصب أشجارها صامتة، خرساء، متّشحة بالأسى، وطرقاها الكئيبة ما زالت تبكي شموعَها التي انطفأت ذات يوم بعيد.

حتى الشوارع والأزقة التي كانت تركض وتلعب فيها مع أترابها "أكّابيبو" و"قرجبّع" و"سلباتي" و...، بدت كأنها أُفرِغت منها الذكريات الجميلة كما أُفرِغ حلمُها من تفتُّحه.

مشت باتجاه منزلهم الكائن بأطراف القرية، وتوقفت في منتصف المزرعة التي كانت تهرب إليها وتلوذ بها كلما داهمها حزنٌ تحرص على إخفائه عن أمها المريضة.

لم تصدِّق ما رأت؛ فكأن أشجار الجوافة والليمون التي كانت تبسط خُضرة يانعة على تلك الأرض قد رحلت مع من رحلوا، فبدت الأرض قطعةَ عظم نهشَ الكلاب لحمها!

التفتت يميناً ويساراً، فلم تجد أثراً لزريبة الأغنام التي كان ثغاؤها يحْيي المكان.

لقد مُسِحت قريتها وأُزيلت من الوجود، فصارت كالعرجون القديم.

أحسّت بخيطٍ من الحُزن ينسل من أعماقها وارتعشت في داخلها ذكريات أيام بعيدة.

هُنا كانت تلعب مع أترابها، وهُناك كانت تقف إلى جوار أُمها كل مساء، لتُعينها على الإمساك بالبقرة الوحيدة التي كانوا يعتمدون على حليبها في غذائهم اليومي، فيشربونه ويصنعون منه السمن والزبدة وغير ذلك من مُشتقات.

تضحك "زهرة" كأنها تُنفّس غيظاً مكتوماً في أعماقها، وتبتسم حين تتذكّر الطريقة التي كانت تكبح بها جماح العجْلِ الصغير، الذي كان يُصارع للوصول إلى ثدي أُمه لينال حصته من الرضاعة!

كانت تُدخِل أصابعها في فمه، فينهمك في مصّ أصابعها تماماً كما يمُصّ ثدي أُمه عند الرضاعة، حتى إذا ما انتهت أُمها من الحلب وامتلأ "العامور"[15]، تسحب "زهرة" أصابعها من فمه، فينطلق ليرضع حتى يشبع!

---

[15] الإناء الذي تُحلب فيه الأبقار.

وقفت تتأمّل مآل قريتها التي صارت أطلالاً بائسة، كئيبة، لا يُسمع فيها سوى عواء الريح وصفيرها.

"هل أخطأتُ العنوان؟"، تساءلت والدهشة تفيض من عينيها.

كلا. لم تُخطئ العنوان، لكنها أخطأت التقدير حين ظنت أن الأيام القاسية قد انسحبت من حياتها!

هكذا وجدت نفسها تلملم ما تناثرَ من حُزنها وتعود أدراجها لتواصل سيرها في موكب الرحيل القاسي.

وحين أرخى الليل سدولَهُ وتغلغل الظلام في أرجاء المدينة المنكفئه على ذاتها، اعتكفت في غرفتها الكئيبة بالفندق، تُقلِّب دفتر أحزانها وخيباتها المتكررة.

أيقظ الفقدُ أشواقها، فأخذت تبكي على قريتها الحبيبة، التي ظلت تجترّ تفاصيلها الجميلة وتخبئها بين طيَّات الذاكرة.

تناهى إلى أُذنيها حوارٌ هامسٌ بين شخصين يتحدثان في الغُرفة المجاورة، ويبدو أن أحدهما كان حزيناً وقلِقاً يتحدّث بمرارةٍ وحسره عن أمرٍ جلل، بينما بقي الآخر صامتاً لا يتحدث إلا لماماً:

obeikandi.com

– أشعُر أننا قد بتنا كضيوف غير مرغوب فيهم، أو هكذا يُحاول هؤلاء أن يسرِّبوا إلى قلوبنا هذا الشعور!

– ....

– لستُ متشائماً، لكنني فقط أنظر بعينٍ مفتوحة لما يدور حولنا، فحين يُساق العشرات من الرجال الذين صاغوا بالبطولات الفريدة أبجديات الانتماء لهذا الوطن إلى مصير مجهول، أليس في هذا مدعاة إلى التشاؤم؟

ساد الصمتُ طويلاً، فظنت "زهرة" أن باب الحوار قد أُغلق بينهما، لكن صوتَ رجل خمّنت أنه رصين ومُثقَل بالتجارب والحِكم تسلل إلى أُذنيها فجأة.

"قد يكون التشاؤم مفيد أحياناً، لكن في حالة واحدة"، قال الرجل ثُمّ صمت قليلاً قبل أن يواصل:

– التشاؤم يا "صالح " يُمكن أن يفيدنا إذا أفضى بنا إلى التشخيص السّليم للظرف أو الحالة التي يمُر بها الوطن كى يتسنّى لنا بعد ذلك معالجة الأمر بحكمة من دون أن نسمح للأحاسيس المنفلتة من عقال الذاكره الملوثة بآثام الماضي، أن تلوِّن فضاءنا الغائم أصلاً بأخطاءٍ أُخرى لا تقِلّ خطورةً عن تلك التي مُورست إبّان سنوات النضال، من هؤلاء وأولئك على حد سواء!

Oudeikandi.com

اقتربت "زهرة" بفضول والتصقت بالجدار الفاصل بين الغرفتين وجعلت تُصغي.

– لا تنسَ يا صالح أننا مُقبلون على عهدٍ جديد، هو عهد الدولة التي يجب علينا جميعاً أن نُحرِّك دولابها في الاتجاه الصحيح و.........،.

"يبدو أن الماضي الذي تتحدث عنه قد مضى من دون أن يُلملم أطرافه السوداء من قلوبنا"، قاطعهُ صالح الذى بدا كأنهُ يبكي وهو يتساءل:

– قُل لي يا أُستاذ "عامر"، أين هُم أولئك الرجال الذين صنعوا لنا هذه اللحظة التاريخية التي نُفاخر بها بين الأُمم؟ أين "ديناي"، أين "محمد خير"، أين "داير"، أين.....؟

– هذا صحيح؛ فتراكُمات الأمس السالبة لم ترحل بعد، وهذه هي العقبة التي تُعيق طريقنا الآن، فمن المؤسف أن يتجرأ الظلاميون ويطفئوا الشموع التي أنارت لنا جميعاً عتمة الدروب الحالكة، لكن حتمية التاريخ تقول إن دولة الظُّلم لا تدوم، وإن الدكتاتوريات تحفر قبورها بأيديها، فلننتظر اليوم الذي ندفن فيه هذا النظام الفاسد، ولكن..

obeikandi.com

صمت "عامر" قليلاً، ثُم دنا برأسه قريباً من أُذنه قبل أن يواصل: "لكن حتى يحين ذلك اليوم، يجب أن نتوخى الحيطة والحذر، فربما يسقط مزيد من الضحايا، لأن الكلب المسعور يظل يعُضّ غيره حتى آخر نبض في عروقه!".

– لا يا "عامر". لا. فأنا لم آتِ إلى هُنا لأدفن أحداً أو أُقاتل في حروبٍ عبثية. لقد جئتُ هُنا بنيّةٍ صادقة لأُشارك في بناء الوطن الوليد، وقد تركت خلفي مُغريات يسيل لها اللُّعاب، فشهادتي التي أحرزتها بامتياز في الهندسة المدنية تؤهلني للعمل في أيّ بُقعة بالعالم، ولا تنسَ أن أبواب الخليج مُشرعة لمثلي من الأكاديميين المؤهلين..

وضع حقيبته على الأرض، وجعل يرمى فيها ملابسه وأغراضه الخاصة، ثُم وقف أمامه وقد التمع شعاعٌ من الدمع على مُقلتيه:

– نحن شعبٌ قُدّر له أن يعيش على هامش الحياة.. شعب يتصور أن الحياة لا تستقيم إلا بالشقاق والاحتراب، وفوق ذلك فقد رُزئنا بقيادة لا تعرف كيف تكبح مشاعرها العدوانية تجاه من يخالفها الرأي. لقد حطمت الثورة الفرنسية أغلال "الباستيل"، ثُم أرست دعائم الحرية والديمقراطية، فماذا فعلت ثورتنا المنتصرة؟

obeikandl.com

"بل قُل، ماذا فعل الذين سرقوا الثورة؟"، قاطعه "عامر" بتساؤله هذا، فصمت "صالح" قليلاً ثُم عاد إلى حديثه:

– هذا صحيح، فقد شيَّد هؤلاء مزيداً من السجون، بل أضحى الوطن كله سجناً يرزح الشعب خلف قضبانه.

"لكن لا جدوى الآن من التمادي في جلد الذات، فليس الأمر بخارجٍ عن قدرتنا على التجاوز، وهو لم يصل بعد إلى حد الانهيار"، قال "عامر" كأنه يحاذر أن يرُشّ الملح على الجرح.

ساد صمتٌ مشوب بالرهبة، فحبست "زهرة" أنفاسها وزمّت شفتيها متألمة وقد أثار ذلك الحديث الشجي في نفسها أعنفَ المشاعر.

"بل انهارَ كل شيء، لكنك تنظر إلى الأمور بمنظارٍ حالم ومتفائل، عكس هذا الذي تراهُ أمامك، يبتسم ابتسامة غامضة مثل ابتسامة أفعى جائعة، ولا يدري أحدٌ ماذا يُخبئ خلف هذه الابتسامة الماكرة"، قال "صالح" وهو يشير إلى صورة للرئيس كانت معلّقة على الجدار، ثُم أضاف:

– لقد انتفخت أوداج نرجسيته، حتى صار هو المُحقق، وهو الحكَم، وهو الذي ينفِّذ الحكم!

obeikandi.com

وضعت "زهرة" يدها على الشِّق الأيسر من وجهها المتواري خلف حجابٍ من الاصفرار والذبول، واصلت الإصغاء بحرصٍ واهتمام.

– الرحيل هو الحل الأمثل يا "عامر"، فمن العبط أن نموت هنا بسبب "عطسة" تخرج من أنوفنا عفواً، فيصنع منها هؤلاء المتربصون خلف متاريس أحقادهم جريرةً تستوجب القصاص!

صمت قليلاً ثُم تسلل صوتُه بُغتةً حين قرأ الدهشة على وجه "عامر":

– ما الغرابة في ذلك؟ ألسنا نحن الأرتريون الأكثر خبرةً من غيرنا في ارتياد المنافي وعبور المحيطات؟ ألسنا الأكثر خبرةً في السفر والهجرة والاغتراب؟ بل أرجو ألاّ تستغرب يا "عامر" إذا اكتشف العلماء يوماً في خلايانا "جين الرحيل"!

قال ذلك وهو يودعه بنظراتٍ لاذت به إلى مجاهيل مظلمة، حرّكت فيه مواجع لجروحٍ مليئة بالقيح.

ارتمى "عامر" على سريره وأخذ ينظر إلى أعلى كأنه ينادم السقف المرْتَجّ بالوحشة، ثُم لعنَ الأوطان التي تتناسل الحروب فيها ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل.

obeikandi.com

لقد فتح الغيابُ والفقد، فراغاً واسعاً في صدره، فها هو ذا يودع آخر الأصدقاء الذين غادروا جميعاً، إما إلى المنافي أو إلى السجون أو إلى المشانق.

وحين بدأ المساء ينشر العتمة في كل الجهات، حاولت "زهرة" التي انغرس الحزن في قلبها، أن تنفض عن نفسها رذاذ الصدمة، فجعلت تتملّى طيف الغمام الذى كان يصعد ببطءٍ فوق سماء المدينة، ثُم وقفت في بهو الفندق تتنشّق الهواء الطلق ملءَ رئتيها، ثُم أطلقت زفيراً حاراً من صدرها الملتاع وعادت إلى غرفتها ونامت ليلتها تلك، مُسهَدة ومُنهكَة، تجتر تفاصيل أيامها القاسية وأقدارها التي ظلّت تقتلعها من وحلٍ لترمى بها في وحلٍ آخر أشد قسوة.

وخزَتْها النبرة اليائسة المُتشائمة، التي صاغ بها "صالح" حديثه الموجع، وإن كانتْ قد أيقنت قبل ذلك أنّ صمتَ أصوات الرصاص وسكونها لم يكُن يعني أن نار الحرب قد خمدت.

نهضت فجرَ اليوم التالي من فراشها مُنكسرة شاحبة، وأخذت تتأمّل ما حاق بها وبأُمنياتها التي صارت تتلاشى كما يذوب الجليد تحت وهج الشمس.

obeikandi.com

ما أبغض الرحيل وما أقساهُ حين يأتي في غير مواسمه؛ هكذا، فجأة، بلا ميعاد.

استرجعت ما قاله "صالح"، فانتفض قلبها وارتعشت فرائصها.

"كيف يكون الرحيل هو الحل الأمثل وقد جئنا لنوقد الشموع ابتهاجاً بطيّ سيرته إلى الأبد؟"، تساءلت بحزن واستنكار، لكنها عادت تُقلِّب الفكرة من كل الزوايا، فلم تجد حلاًّ آخر يلبي طموحها وأمنياتها.

هكذا وجدت نفسها مرةً أُخرى تلملم أشلاءها وتيمّم شطر الرحيل.

وقبل أن تُغادر باكيةً، ملأت صدرها المرهق بنسائم الصباح "الكرنيه" المنعشة، ثُم غمست يراعَ الحسرة والأسى في حبرٍ من الدموع لتسجّل في دفتر أحزانها مرثية الوداع الأخير:

"أيها الغافي في حدق العيون وفي مسام الروح نبضاً وارتعاشاً..

ها أنذا أنثر همومك في سماواتي المثخنة بجراح النفي وغصّات الرحيل.

وها هو ذا قلبي النازف حُبّاً يبحث عن أُسطورةٍ تحرره من نار عشقك كما حاول سيزيف [16] أن يتحرر من صخرته العنيدة!

فكيف تُرى ستسوقني الخُطا بعيداً عن ضفافك وأنا التي أستنشقك هواءً نقياً وأقتاتك خبزاً طرياً؟

كم سألْتُكَ أيها الوطن الحبيب أن تكون ملاذي حين أحتاجك، وكم دعوتك أن تكون قريباً مني كنبضي.. كم هرولتْ في دواخلي الأمنيات؟

فوداعاً أيها الكامن في خلايا الروح، وداعاً أيُها المتغلغل في ثنايا القلب، وليهنأ الذين تمالأوا لدفنك في حاويات قذاراتهم وشيّدوا بيني وبينك جسراً من الألغام.

ليهنأوا بما سرقوا من أحلام".

في طريقها إلى "أسمرة"، غرزت عينيها المتعبتين في المدى الناصع ونظرت بحزنٍ وأسى صوب الأُفق المتكئ على الفضاء الشاحب.

---

16 رمز العذاب الأبدي في الميثولوجيا الإغريقية.

تساقطت الأحداث المؤلمة، كالندف في صحن الذاكرة، فأخذت تندب حظها وترثي أيامها المضرجة بالفزع والحسرة التي كبرت في دواخلها يوماً بعد يوم، وتسلّقت معها جدار العمر الموبوء بالحسرات.

بعثر الحزن في داخلها خيوطه الداكنة كما يُبعثر البحرُ زُرقته وأمواجه النافرة.

نبتت في أعماقها مداميكُ الأسى وذبُلت في عينيها المدينة الساحرة، فغدتْ وردةً بلا أريج.

بهت البريق الذي كان يلتهم العتمة ويجعل ليالي "أسمرة" شفيفاً كصباحات "عونا" الحبيبة.

اكتسى وجه "كمشتاتو" قناعاً من الحزن الماحق، وكفّ النورسُ الغرّيدُ عن الشَّدْو الجميل!

"هل بُحَّ صوته أم...؟"، تساءلت بأسى وسائق "التاكسي" الأرعن يصرّ على اختصار المسافة بين مطار "أسمرة" ووسط المدينة بسرعةٍ جنونية، كأنه يُلاحق قدَراً مشؤوماً.

لقد جفّت كل الينابيع، وانسحقت تحت أقدام الطُّغاة كلُّ أحلامها النديّة.

– إلى أين يتجه هذا الوطن الملطّخ بالخيبة؟

رجّت الحيرةُ فيها ثدياً مُتْرَعاً بالدهشة والتساؤلات الحارقة، فبكت حين حلّقت بها الطائرة عالياً في رحلة الوداع الأخير.

وهناك، في الأرض البعيدة، لاذت بـ"الأطلنطي" نديماً يؤنِس وحشتها، فأخذت تتأمل المَراكب التي تطفو على شواطئه، تشُدّها المراسي الثقيلة، وجعلت تنظر في الأُفق البعيد إلى السُّفُن الراحلة، فتمنّت أن تأخذَها إلى حيث سارَ الموجُ والطوفان بمن رحلوا.

على صفحة ماء المحيط، المُشبّع بالهمس الشفيف، انعكست وجوههم المضيئة، فتراءى لها إخوتها الصغار وهُم يلعبون في بيتهم الفسيح بـ"عونا"، بينما لاحت أُمها أمام ناظريها وعلى شفتيها ابتسامةٌ ملؤها الحُب والحنان.

حاولت "زهرة" أن تُمسك بخيط الطيف الجميل، لكنه انزلق من بين يديها وتلاشى بين أمواج الخضم الهائل.

عادت إلى واقعها المُزري الكئيب، تقاوم تيارَ حزنٍ كاسحاً وأنصالَ غُربة تسرق كل يوم قطرةً من دمها.

أدمنت الجلوس خلف شاشات الفضائيات وصفحات الإنترنت التي فتحت أمامها منفذاً في جدار الأمل، فصارت تنظر بتفاؤلٍ إلى إمكانية التغيير وإسقاط النظام المستبِدّ، غير عابئة بخربشات "لؤلؤة" التي كانت تصر على أن الدكتاتوريات في إفريقيا هي صمّام الأمان لحرية شعوبها، وأن المُعارضة التي تنتمي "زهرة" إليها والتي تُنادي بالديمقراطية والحرية هي ليست البديل الأفضل، مستشهدةً بما حدث لوطنها الذي كان موحداً وقوياً في عهد العسكر، فتلاشى برحيلهم وصار أثراً بعد عين!

انضمّت "زهرة" إلى صفوف المُعارضة، لكنها اصطدمت بمتاريس من الحواجز الثقيلة، فعملت على رأب الصدع بين هؤلاء وأولئك من الذين فشلوا في تخطّي حواجز الماضي ومراراته، لكنها كانت كمن يحرث في البحر!

openkandil.com

أحزنها أن تتلاشى ملامحُ الوطن بين مطرقة نظامٍ جائر وسندانِ مُعارضة أكثر هشاشةً من جناحَي ذُبابة، فعادت تُغازل زُرقة المحيط وتتأمل أمواجه النافرة، ثُم نعَتْ حُلمَها الذي عصفتْ به الأقدار:

يا وطن الجراحِ المُرّة

ويا حُزننا الأبدي،

كما غرستَ حُبك فينا

علِّمنا كيف ننسى حُبَّك.

obeikandl.com